حسن علي مصطفى

نشأة الدين

بين التصور الإنساني والتصور الإسلامي

دراسة في علم الاجتماع الديني

مؤسسة الإسراء
للنشر والتوزيع

حسن علي مصطفى حمدان

نشأة الدين

بين التصور الأنساني و التصور الاسلامي

(دراسة في علم الاجتماع الديني)

الطبعة الاولى 1991

مؤسسة الإسراء
للنشر والتوزيع

مؤسسة الإسراء
للنشـــر والتوزيـــع
121/حي الرياض / قسنطينة
هاتف المكتب : 66 31 69 (04)
المراسلة : ص.ب 114/ حي 20 أوت / قسنطينة

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ

مقدمة :

تعتبر هذه الصفحات في الأصل تقديما لدراسة واسعة ، نتناول فيها ـ إضافة الى نشأة الدين بين التصور الانساني و التصور الاسلامي ـ موضوع الحاجة الانسانية للدين ، ورغم أن الباحثين الاجتماعيين لم ينكروا ما للأديان ـ على إختلافها ـ من وظائف اجتماعية فعالة ، وأدوار ايجابية حساسة ، في الحياة الانسانية عامة ... رغم ذلك ، .. الا أننا لم نقصد فيما أسلفنا الدين على اطلاقه بل دينا بعينه ، يختلف في سعته و مرونته و خصائصه وشموله ، .. عن سائر الأديان الأخرى .. و هو الاسلام .

و هذه المباحث في مجموعها ، ما هي الا مدخل لهذا الموضوع الواسع ولعل من أهم ما يمكن أن يخرج به القارىء لهذه الصفحات هو التأكد التام من عدم اتفاق الباحثين الغربيين حول تصور واحد للدين ، و سيرى من خلال أطروحاتهم حول الموضوع ، أنهم متناقضون في ذلك الى أبعد حدود التناقض ، و سيدرك أن جلهم لا يكاد يفرق بين الدين و السحر و الخرافة، .. ناهيك عن التفريق بين دين و دين ...

و الذى شجعنا على نشر هذه الأوراق في بحث مستقل ، رغم ارتباطها ـ كما قدمنا ـ بموضوع لم يكتمل بعد ، هو أننا نعيش اليوم عصرا كثر فيه إستيراد المسلمين للقيم و المفاهيم و التصورات الجاهزة في ميادين الدين و التدين و العادات و القيم ... و الثقافة عموما .

و ليس من الجديد قولنا : أن الفكر الغربي مصدر هذه المستوردات و مستودعها .

و من هنا تنبثق اهمية هذا البحث و هي لفت أنظار المسلمين المبهورين بالصناعات الغربية في الميادين السابقة ، الى أن الغربيين لا يكادون يفقهون في حقيقة الدين شيئا ، و أنهم اذا تحدثوا عن الدين ، حتى تحت شعارات العلم و الانصاف و الموضوعية ، يقصدون في ثنايا حديثهم ، الجهل ، و الكبت و التخلف ، والارهاب ، و الوحشية ، و السذاجة ، و السحر ، و

الخرافة ... وكل ما في قاموس اللغة من معاني السلبية .

و مباحث هذه الدراسة كفيلة بأن تترك في وجدان قارئها انطباعا يؤيد بل يؤكد أن تصور الباحثين الغربيين عن الدين ، على إختلاف المدارس التي ينتمون اليها ... الطبيعية ، و الروحية ، والنفسية ، و الاجتماعية ، يشبه الى حد كبير تصور القصاصين والخرافيين في سذاجته و قصوره ...

أما بخصوص التصور الاسلامي ، فقد عرضناه في صفحات قلائل ... حتى قد يظن البعض للوهلة الأولى ، أن في هذا ألايجاز تجن على رأى الاسلام في الموضوع . اذ كيف يتم عرض التصور الغربي فيما يقرب من ثلثي البحث ، في حين أن ما خصص لعرض التصور الاسلامي لا يكاد يجاوز الثلث ؟ .

أيعقل هذا إسلاميا ؟ . أو حتى علميا و منهجيا ؟ .

ولإزالة هذا اللبس ، نقول :

نحن في حقيقة الأمر لم نعرض لتصور غربي واحد حول الدين ، و انما عرضنا عددا من التصورات لعدد من الغربيين ، فالتصور الغربي حول نشأة الدين ليس واحداً ، و إنما يتوزعه عدد من المدارس والاتجاهات ، كل منها ينظر الى الموضوع نظرة مختلفة حتى أن معظم رواد هذه المدارس ، أسسوا تصوراتهم على نقيض تصورات الآخرين في هذا الموضوع ، بل إننا نعتقد أن هذه المُنَاقضَة تعد من الأسباب الهامة في بلورة هذه الاتجاهات في صورها الحالية ، و مثال ذلك المدرسة الطبيعية ، و المدرسة الاجتماعية ، فالأولى تقوم على نقيض ما تقوم عليه المدرسة الروحية ، و الثانية تقوم على نقيض ما تقوم عليه المدرسة النفسية ...

و لأننا في الأساس لا نسعى لمجرد الاحاطة بآراء مدرسة غربية واحدة بل بالتصور الغربي العام . فاننا نجد أنفسنا مضطرين الى عرض كل هذه التصورات التي يتشكل منها في النهاية هذا التصور العام ، و قد رأينا أن تجــاوز أى إتجاه من الاتجاهات التي عرضنا لها ، منْ شأنه أن يترك نقصا واضحا في التصور الغربي ، لأن هذا الأخير ما هو في حقيقته الا مجموع

تصورات هذه الاتجاهات على إختلافها .

و هو ــ كما ترى ــ تصور يفتقر الى الانسجام و التكامل ، ويكاد لا يحوي داخل أطره سوى آراء متناقضة ، و تصورات متعارضة ... الا أن هذه الصورة بكل سلبّياتها ، تبقى في النهاية المصدر الذى يتشكل منه التصور الغربي العام ، و علينا أن نعرضها بكل جوانبها ...

في حين أن عرض الاسلام للمسألة يتسم في مجمله و مفصله بالبساطة و الوضوح و التكامل و الانسجام ...

و هذا الذى يستند اليه التصور الاسلامي ، و يفتقر اليه التصور الغربي هو سر الاختصار و الاكثار في كلامنا حول كل من التصورين ...

هذا زيادة على أن منهج القرآن في تقرير الحقائق ، لا يترك مجالا لحشو الكلام ، و الآيات التي وردت بهذا الخصوص ، تمكن الباحث من رسم الاطار العام للتصور الاسلامي حول الموضوع في سهولة و يسر و إختصار ...

أما الخوض في تفاصيل موضوع « نشأة الدين » باسم الاسلام ، فهو أمر نرفضه ، رغم وجود بعض الكتابات لبعض المسلمين في هذا الموضوع و سبب ذلك ــ فيما نرى ــ أن هذه التفاصيل تعبر عن اجتهادات أصحابها ، أكثر مما تمثل رأى الاسلام ، فالاسلام ــكما سبق ان قلنا ــ لم يقدم تفصيلات كاملة في هذه المسألة .. و بالتالي فان مراجع الباحثين المسلمين الذين بحثوا في هذا الموضوع لم تنحصر في القران وحده ، لنقول عن نتائج دراساتهم أنها قرآنية ، و إنما دخل فيها التاريخ والاستنتاج والاجتهاد ... و هو منهج لا يرفضه الاسلام على العموم ، الا أنه من غير المعقول أن نزعم بعد ذلك أن هذه الدراسات تمثل رأى الاسلام حقا ...

و أخيرا فان هذا البحث يشمل أساسا فصلين إثنين ، كما أن كل فصل منهما يضم عددا من المباحث .

فالفصل الأول ، عرضنا فيه مفهوم الدين على وجه العموم ، حيث إبتدأنا ذلك ببيان معنى الدين لغة و إصطلاحا ، ثم أتبعناه بمبحث آخر

عرضنا فيه لمفهوم الدين عند الغربيين ، و ختمنا ذلك بمبحث ثالث بينا فيه مفهوم الدين في الاسلام ...

أما الفصل الثاني ، فقد خصصناه لمناقشة المسألة التي يتشكل منها صلب الموضوع ، و هي « نشأة الدين » .

و قد جعلنا ذلك في قسمين أساسيين :ـ

القسم الأول خصصناه لعرض و مناقشة النظريات الوضعية ، وقد أخترنا ـ عن قصد ـ أربع نظريات أساسية ، رأينا أنها في مجموعها تعبر عن حقيقة التصور الغربي ، الذى يتشكل بدوره من مجموعة إتجاهات :ـ

ـ فالنظرية الطبيعية تمثل الاتجاه الطبيعي .
ـ و النظرية الروحية تمثل الاتجاه الروحي .
ـ و النظرية التوتمية تمثل الاتجاه الاجتماعي .
ـ و نظرية برجسون تمثل الاتجاه النفسي .

أما القسم الثاني ، فقد خصصناه لعرض رأى الاسلام في الموضوع ، و ذلك من خلال بيان أصل الانسان في الاسلام ، كمبحث تمهيدي ، و من ثم عرضنا لثوابت التصور الاسلامي حول بداية الدين .. و قد كنت أنوي ادخال مبحث آخر يكون سابقا على " المبحث الأول " أعرض فيه تصور الاسلام حول الكون والخلق ... الا أن البعض نصح بالوقوف عند هذا الحد ، معتبرا ذلك من قبيل المسلمات .

و أخيرا لا يسعني الا أن أتقدم بالشكر و العرفان الى الأستاذ الدكتور فخرى أبو صفية ، على تَفضُّلِه بمراجعة هذه الصفحات ، وعلى ما أبداه من ملاحظات ، كان لها عظيم الأثر على البحث والباحث . فجزاه الله خير الجزاء .

و الحمد لله رب العالمين

المؤلف

٢١ / ٠٤ / ١٩٨٨ م

الفصل الأول

ـ مفهوم الدين ـ

ـ المبحث الأول: الدين لغة و اصطلاحا .

ـ المبحث الثاني : مفهوم الدين عند الغربيين .

ـ المبحث الثالث :الدين في المفهوم الاسلامي .

ـ المبحث الأول ـ

الدين لغة و اصطلاحا

الدين لغة :

يقول الباحثون في أصل هذه التسمية أن كلمة (الدين) تؤخذ تارة من فعل مُتَعَدّ بنفسه (دانه يدينه) و تارة من فعل متعد باللام (دان له) و تارة من فعل متعد بالباء (دان به) . وبأختلاف الاشتقاق تختلف الصور المعنوية التي تعطيها الصيغة .

أ ــ فإذا قلنا : (دانه دينا) عنينا بذلك أنه ملكه ، وحكمه ، و ساسه ، و دبره ، و قهره و حاسبه ، وقضى في شأنه ، و جازاه و كافاه فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك و التصرف بما هو من شأن الملوك ، من السياسة و التدبير والحكم ، و القهر ، و المحاسبة ، و المجازاة، و من ذلك : (مالك يوم الدين) أى يوم المحاسبة ، و الجزاء . وفي الحديث : ((الكيس من دان نفسه)) أى حكمها و ضبطها ، و (الديان) الحكم القاضي .

ب ـ و إذا قلنا : (دان له) أردنا أنه أطاعه ، و خضع له ، فالدين هو الخضوع و الطاعة ، و العبادة ، و الورع . وكلمة : (الدين لله) يصبح أن منها كلا المعنيين الحكم لله أو الخضوع لله .

وواضح أن هذا المعنى ملازم للأول و مطاوع له (دانه فدان له) أى قهره على الطاعة فخضع و أطاع .

جـ ــ و إذا قلنا : (دان بالشيء) كان معناه أنه اتخذه دينا و مذهبا أى أعتقده أو اعتاده أو تخلق به ، فالدين على هذا هو المذهب و الطريقة التي يسير عليها المرء نظريا أو عمليًا . فالمذهب العملي لكل امرىء هو عادته و سيرته ، كما يقال : ((هذا ديني و ديدني)) و المذهب النظري عنده هو عقيدته ورأيه الذى يعتنقه ، و من ذلك قولهم :

((دينت الرجل)) أى وكلته الى دينه و لم أعترض عليه فيما يراه سائغًا في إعتقاده ...

و جملة القول في هذه المعاني .. أن كلمة الدين عند العرب تشير الى علاقة بين طرفين ، يعظم أحدهما الآخر ، و يخضع له ، فإذا وصف بها الطرف الأول ، كانت خضوعا و انقيادا ، و اذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرا و سلطانا ، و حكما و إلزاما ، و اذا نظربها الى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر الذى يعبر عنها .

و نستطيع القول : إن المادة كلها تدور على معـنى لزوم الانـقياد ، فالدين في الاستعمال الأول هو إلزام الانقياد ، و في الاستعمال الثاني هو التزام الانقياد ، و في الاستعمال الثالث هو المبدأ الذى يلتزم الانقياد له [١].

و قد حاول فريق من العلماء الغربيين تحليل الدلالة اللغوية لكلمة (دين في اللغة الانجليزية و الفرنسية (RELIGION)، وهي كلمة مشتقة أساسا من اللاتينية ، إلا أنهم أختلفوا في تحديد الأصل الذى ترجع اليه في هذه اللغة.

فذهب البعض و علي رأسهم " جييو ـ GUYAU " الى أن هذا اللفظ مشتق من الفعل اللاتيني (RELIGARE) بمعنى جمع أو رَبَطَ ، بينما ذهب فريق آخر يمثله (روجيه باستيد ـ R.BASTIDE) و (جيفونز ـ GEVONS) الى أن كلمة RELIGION) ترجع الى الفعل اللاتيني (RELIGERE) ، الذى يشير الى مفهوم العبادة القائمة على الخشوع و الرهبة و الاحترام[٢].

---

(١) – د . محمد عبد الله دراز ـ الدين ـ دار القلم ـ الكويت ـ 1402هـ ـ 1982م ـ ص (30 ـ 31) .

(٢) – د . نبيل محمد توفيق السمالوطي ـ الدين و البناء الاجتماعي (الجزء الثاني) – دار الشروق للنشر و التوزيع و الطباعة ، جدة ، ط 1 (1401 هـ – 1981 م) ، ص (23 – 24) .

و من إستقراء المعاني اللغوية العديدة التي سبق ذكرها لكلمة الدين يمكن أن نلاحظ أمرين : ــ

الأول : ــ أنه ليس لهذه الكلمة معنى لغويا واحدا ، بل إنها تتسع لمعاني عديدة ، و هي قابلة في نفس الوقت لأن تحمل على أكثر من وجه و يصعب ضبطها الا بغيرها .

الثاني : ــ أن مدلول (الدين) في اللغة العربية أوسع منه في اللغات الأخرى ، ذات الأصل اللاتيني ، فمن معاني الدين في العربية ، أنه منهج حياة ، و مذهب يمكن للمسلم من خلاله أن يتعامل مع الكون و الوجود من حوله ، كما يفهم ذلك بجلاء من النقطة (جـ) .

أما في اللغات الأخرى ــ الانجليزية و الفرنسية ــ فإن كان أصل كلمة (RELIGION) هو من الفعل الأول (RELIGARE) بمعنى جمع أو ربط فهو ذو دلالة أسطورية حسب (دى لا جراسي. DELA. GRASSEVIE أما إذا كان أصل التسمية من الفعل الثاني (RELIGERE) بمعنى العبادة القائمة على الخشوع والرهبة و الاحترام ، فإنه يكاد يكون وفق هذا المعنى مقصورا على الديانات السماوية دون غيرها .. !

في حين أن لفظ الدين بمعناه الشمولي ، ليس حكرًا على الديانات الأسطورية و حدها ، كما أنه لا ينحصر في الديانات السماوية دون غيرها ، وإنما يشمل المعنيين و يتسع لمفهوم الاديان على اختلافها . ..!!

و لعل نظرية الغربيين الجزئية للدين ، و محاولتهم حصر معناه في واحد من اثنين : المعنى الأسطورى ، أو المعنى السماوى ، هو سر إخفاقهم في إعطاء هذا اللفظ معنى أوسع أوشمل مما ذهبوا اليه .

و سنناقش هذا عند التعرض لموضوع الدين في المفهوم الغربي ...

الدين اصطلاحا :

لقد وجد الباحثون في علم الاجتماع أنفسهم أمام معضلة كبيرة ، عندما شرعوا في تحديد معنى الدين ، وقد أعلن (ماكس ڤيبر) في دراسة أجراها بهذا الخصوص بأنه لا يستطيع أن يضمن مقدمة دراسته

هذه ، تعريفا محددا للدين ، و أن عملا كهذا قد يمكن القيام به في نهايةالدراسة"[1].

و يشير أحد الباحثين الاخرين [2] ، الى أن (جيمس لوبا ـ G.LEUBA أورد عام (1912) حوالي (49) تعريفا للدين ، وأضاف اليها تعريفين من عنده ، و مع هذا فلا يوجد بينها تعريف واحد متفق عليه ، أو حقق حدا أدنى من الانقاف بين الباحثين !

وقد عقدت عدة مؤتمرات وندوات علمية لتحديد معنى الدين ، إلا أنها باءت جميعها بالفشل ، و لم يتم التوصل الى تعريف يتفق حوله علماء الاجتماع .

ففي عام (1927) عقدت (جريدة الأديان ـ GAURNAL OF RELIGION) ندوة علمية لتحديد معنى الدين ، إلاّ أنها لم تنجح في الوصول الى تعريف يمكن الاتفاق عليه ، و قد جمع (والتركلارك ـ .WALTER.H.CLARK)في دراسة أجراها عام1958) مجموعة من الاجابات المتباينة استقاها من (63)عالم إجتماعي ، كلها تحاول الاجابة عن السؤال التالى : ـ ما الذى يؤلف أو يشكل الدين[3] ! .

إن الباحثين الذيـــن حاولوا وضع تعريفات عامة لهذا المصطلح

---

(١) – د . محمد أحمد بيومي – علم الاجتماع – الدار الجامعية – مصر – بدون تاريخ ، ص (273) .

(٢) ـ هو الباحث (كاير ـCARRIER) فس دراسة أجراها بهذا الخصوص عام (1960) .

(٣) ـ د – نبيل محمد توفيق الـسمالوطي ـ الدين و البناء الاجتماعي (الجزء الثاني) ـ دار الشروق ـ مرجع سابق ـ ص (15) .

كثيرون و عديدون[1]، و لسنا بصدد ذكر أسمائهم أو الحديث عن محاولاتهم ، إلا أن الذى لا شك فيه ، هو أن كل واحد من هؤلاء الباحثين حاول جاهدا أن يضع تعريفا شاملا لهذا المفهوم ، إلا أنهم أخفقوا في ذلك.

و الدكتور محمد دراز كان واحداً من الذين حاولوا وضع صياغة عامة لمفهوم هذا الاصطلاح ، فهو يعرف الدين بعد أن يناقش الكثير من التعريفات السابقة . بأنه : ((الاعتقاد بوجود ذات ــ أو ذوات ــ غيبية ، علوية لها شعور و أختيار ، ولها تصرف و تدبير للشؤون التى تعني الانسان ، إعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة و في خضوع و تمجيد)) و يلخص هذا المعنى في عبارة موجزة فيقول بأنه : (الأيمان بذات إلهية جدير بالطاعة و العبادات) هذا اذا نظرنا الى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين ، أما اذا نظرنا

(١) ـ يرجع تاريخ هذه المحاولات الى تاريخ الانسان ذاته . فمثلا ، ذهب فلاسفة اليونان أمثال أفلاطون و تلميذه أرسطو الى القول : بأن مصدر الدين هو روح عاقل متصرف في المواد ، و أن هذا الروح هو السبب الأزلي باطلاق . و هو المبدأ و الاصل لكل حركة و ليست المادة . و إن العقائد و الفلسفات كانت في بدايتها نقية نبيلة . ثم تطورت تطورا تنازليا ... فهذا القول لا يصح أن يكون تعريفا للدين . إلا أنه رغم ذلك تضمن شيئين مهمين ، الأول ــ الاشارة الى مصدر الدين ، و أنه من عند الله الأزلي المتصرف ، و ليس من صنع البشر ، وقيمة هذه الشهادة في كونها من أساطين الفلسفة قديما و حديثا . فهي رد حاسم على المشككين في مصدر الدين ، الذين يخلطون بينه و بين مصدر الفلسفة ... و الأمر الثاني الذى تضمنه النص هو التأكيد على أن العقائد كانت في بدايتها نقية ونبيلة ، ثم تطورت تطورا تنازليا ، و يفهم من هذا أن الاديان دون غيرها لا يمكن للعقل الانساني أن يسهم في تطويرها نحو الأفضل ، و أن أى عملية تطوير للعقائد الدينية من قبل الانسان لن تكون في النهاية في صالح الدين أو الانسان ... و لعل التحريف و التشويه الذى أصاب الأديان الأولى التي لم تكن محصنة ضد هذه الآفة ... يجعلنا نتساءل عن مدى مصداقية نسبتها الى مصدر الدين عموما و هو الله ؟ خصوصا إذا كان التحريف والتزوير خطيرا و كبيرا كما هو حال أديان كثيرة معاصرة .

اليه من حيث هو حقيقة خارجة . فنقول) « هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الالهية و جملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها ..)[١] .

و النقد الذى يمكن أن نوجهه الى هذا التعريف بشقيه ، النفسي و الخارجي . هو أنه يركز في شقه الأول على الجانب الاعتقادى من الاديان على الذات أو الذوات الغيبية ، وصفاتها ، و على إعتقاد الانسان بها ... و في الشق الثاني يضيف الى هذا الجانب ، جانبا آخر هو الجانب العبادي و لا شك أن هذين العنصرين يشكلان المحور الرئيسي لمعظم الأديان دون منازع ... إلا أن هذا الوصف وحده لا يتسع لجميع الأديان ، و لا يعبر تعبيرا صادقا شاملا عن حقيقة كل دين منها .. حيث إن هناك من الأديان الى جانب كونها تتضمن مسائل العقيدة ، و تهتم بأساليب العبادة وأشكالها ، تعتني كذلك بأشياء و أمور أخرى ، كالمعاملة والسلوك و الاخلاق .. أو بعبارة أخرى هناك من الأديان . أديان تمتد تعاليمها لتشمل مختلف مجالات الحياة ، فهي تنظم علاقة الانسان بالانسان ، و تضبط علاقة الانسان بالحياة و الاحياء ، وكذلك علاقته بالكون الواسع ... ، ... و لا تقف عند حد تنظيم علاقته بالخالق في إطار العقيدة و العبادة ! .

و لعل الذي أشرنا اليه ، هو الذى جعل باحثا إجتماعيا مثل «إدوارد سابيير » يخلص من دراسته للبحوث الأنثروبولوجية التي أجريت على المجتمعات المتدينة الى القول : « إن ما تعودنا عليه من تمييز واضح بين الاديان و أنماط السلوك الأخرى في الحياة العصرية مستحيل الإقامة على

(١) - د . محمد عبد الله دراز ــ الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان مرجع سابق ــ ص (52)

مستويات أكثر بدائية [١] (و الأصح لو قال على مستويات أكثر تمسكا بالدين) ، فليس الدين هو الاخلاق و لا العلم و لا الفن ، و إنما يسعى ليكون مرتبطا أقصى الأرتباط بهذه الميادين الثلاثة ، كما أنه يتجلى في تنظيم القبيلة الاجتماعي ، و في مفهوم المراتب ، بل وفي شكل الحكم وتقنياته ... و من الأصوب قولنا أن الدين هو الواقع الهيكلي الوحيد في مجموع ثقافتهم ، و أن مانسميه فنا و علما و أخلاقا و تنظيما إجتماعيا لا يمثل أكثر من تطبيق وجهة النظر الدينية على وظائف الحياة اليومية .[٢]

و هكذا نصل الى أن معنى الدين يتسع أحيانا ، و يضيق أخرى ، تبعا لحقيقة الدين الموصوف ، فهناك أديان لا تضم أكثر من الجانب العقيدى وحده ، و أديان أخرى تجمع الى هذا الجانب العبادة ، في حين أنه يبقى هناك أديان تحفل زيادة على ذلك بالمعاملة و الاخلاق ، لدرجة أنه يصعب على الباحث في أحيان كثيرة فهم سلوك الفرد أو الجماعة بعيدا عن الدين!

فالباحثون مجمعون على وجود صعوبات تعترض الاتفاق حول معنى محدد لهذا الاصطلاح ، ورغم تعدد هذه الصعوبات ، وإختلافها من باحث الى آخر ، إلا أننا سنحاول اجمالها في النقاط الثلاث التالية :ــ

الأولى :ــ

وجود اختلافات جوهرية فيما بين الأديان ذاتها ، فلفظ الدين كما يقول) ديوي ــ DEWEY) لفظ عام لا معنى له ، لانه لا يمثل حقيقة

---

(١) - كثير من علماء الاجتماع الغربيين يجعلون من الدين مؤشرا على التخلف و البدائية ، و حجتهم في ذلك قياس أعمى ، و تعميمات مبالغ فيها . و سنناقش ذلك في صفحات قادمة بحول الله .

(٢) ــ مجموعة من الباحثين ـ أبعاد الدين الاجتماعية ـ تعريب صالح البكارى من مقال سيد حسين الأطاسي ـ الدلر العربية للكتاب ـ تونس ـ 1985 ـ ص (16).

مختلف الأديان الموجودة[1] ، و الفروقات التي قد توجد بين دين و آخر ، ربما تكون أكثر بكثير من نقاط التشابه بينهما ، بل إن بعض الأديان قد تكون أشبه بالفلسفات المادية منها بالأديان ورغم هذا يطلق عليها أصحابها لفظ الدين ، و ليس الفلسفة . !

الثانية :ـ

إن جل الاجتماعيين الذين حاولوا دراسة الأديان ، و تحديد معنى الدين ، هم أساسا لا دين لهم ، بل إن أكثرهم ممن يعادون الدين ، و هذا ظاهر في كتابتهم و أفكارهم و دعواتهم ، و نحن لسنا بصدد رصد و تحليل الأسباب الحقيقية لموقف هذه الفئة من الدين ، فالذى يعنينا هنا ، هو التأكيد على أن كل دين ، له عمق روحي ، و جانب خفي ، و أن إستجلاء هذا الكنه عن طريق رصد الحركات الطقوسيّة الظاهرة و حدها و دون إعتناق الباحث لتعاليم الدين الذى يدرسه إعتناقا صادقا ، لن يمكنه من سبر غور هذا الدين ، و استكشاف حقيقته .

فهناك من الباحثين من عاشوا في أوساط أصيلة في تدينها ، وقاموا بمراقبة تحركات هؤلاء الناس ، و اتصلاتهم و ممارساتهم ، دون أن يمتزجوا بهم امتزاجا حقيقيا ، فهم لم يعتنقوا عقائدهم ، ولم يمارسوا طقوسهم و لم يتزوجوا منهم ، وإن أقدم بعض الباحثين على شيء من ذلك فهم إنما يفعلوه على سبيل التمويه للسماح لهم بالبقاء ، أو ربما لتجنب الحرج الذى قد يجرّه عليهم تميزهم في وسط متدين فكانت النتيجة أن هؤلاء الباحثين لم يخرجوا بنتائج يمكن الوثوق بصدقها ودقة تعبيرها ... !

وبما أن تبديل الدين في سبيل استكمال وسائل البحث العلمي ، أمر غير مستصاغ لدى معظم الباحثين . ولان معيار الحكم سيبقى حتى عند الذين سيغيرون دينهم ــ إن وَجِدَوا ــ مُتأثراً بالدين السابق ، و الافكار

(١) - مجموعة من الباحثين - أبعاد الدين الاجتماعية - المرجع السابق - ص (19) .

السابقة عن الدين ... فإن الطريقة المثلى لتحديد معنى هذا الاصطلاح بعيدا عن بخسه شيئا من معناه ، هي في أن يكون انتماء الباحثين الذين يضطلعون بهذه المهمة ، انتماء أصيلا للأديان التي يدرسونها ، فالمسلم ــ على سبيل المثال ــ هو أولى من يعرف الآخرين بالاسلام ، و كذلك النصراني بالنسبة للنصرانية ، ... و البوذي بالنسبة للبوذية ...

و عندما يُقَدِمُ كل واحد من هؤلاء المختصين تعريفا للدين الذى ينتمي اليه حقيقة لا إسما ، عندها يمكن لباحثين موضوعيين ، و دارسين مختصين أن يخرجوا بمفهوم عام للدين ، و ذلك إنطلاقا من استقراءات دقيقة للتعريفات التى خلص اليها الباحثون السابقون ، و معرفة علمية لأوجه الاتفاق و الاختلاف فيما بينها ...

الثالثة :ــ

إن جل الباحثين حاولوا تحديد معنى الدين في جملة واحدة ، أو في بضع جمل أحيانا ، و هو أمر ترفضه طبائع الأديان إجمالاً فنحن عندما نتحدث عن الدين ، لا نتحدث عن لفظ خيالي ، وإنما عن أديان موجودة لكل واحد منها خصائصه و مميزاته .. و تعاليمه و عقائده و عباداته .. التي تجعل منه دينا مستقلا عن غيره ، بل و مختلفًا عن سائر الأديان الأخرى اختلافا تاما .. !

فكيف إذن يمكن أن نحدد معنى هذه الأديان العديدة ، و ذات المضامين المختلفة في جملة واحدة ، أو بضع جمل ؟ !

إن تعريف الاسلام وحده ، أو النصرانية وحدها ، أو أى دين آخر ، يحتاج منا الى صفحات ، حتى نستطيع توضيح معنى هذا الدين أو ذاك ، فكيف اذا كان الأمر متعلقا بتوضيح معنى الأديان جميعا .. ؟ !

الخلاصة :ــ

نخلص بعد هذا كله ، الى القول : بأنه اذا كان الباحثون والمختصون قد عجزوا عن تحديد معنى الدين لغة و اصطلاحا تحديدا جازما ، و ذهبوا في

ذلك مذاهب شتى ، و لم ينتهوا الى اجماع أو شبه اجماع حول شيء من هذا القبيل ، فان على الباحثين و الدارسين في علم الاجتماع أن يتريثوا قبل اطلاق احكامهم التعميمية على الدين في معناه المطلق .

فعلى ضوؤ ما سبق ، لا بد قبل أن نصدر الحكم من أن نفصل بين الأديان فصلا تاما ، و أن نعالج كل دين على حدة ، و إن كان لابد من إبقاء أو إقامة صلة بينها ، فيجب أن يكون أساس ذلك هو المقارنة فحسب ، و هذا يستدعي أن نقلص من استخدامنا للفظ (الدين) الذى يراد به عادة مجموع الأديان الانسانية ، وأن نقتصر على تسمية كل دين باسمه ... و عليه فليس من حق أى باحث ـ مهما كانت مؤهلاته أن يحشر معنى الدين في عمومه في جملة أو بضع جمل ، ثم يزعم بعد ذلك أن هذه الألفاظ المعدودة ، تستوعب الدين في معناه العام ، و تُعبَر بصدق عن حقيقة كل دين من عشرات الأديان الموجودة !

و كما أن الباحثين لم يجدوا تعريفا واحدا يمكن أن يشمل جميع الأديان المختلفة[1] ، فإن الانصاف يدعونا الى عدم تعميم نتائج الدراسات التي أجراها الأنثربولوجيون على أديان بعض القبائل الوثنية في أفريقيا و استراليا على الأديان الأخرى ....

(١) – لا يعنى هذا أنه بامكان الباحثين أن يتوصلوا في يوم ما الى تعريف واحد جامع مانع ، بهذا الخصوص .. فذلك أمر مستحيل ، لأن المسألة هنا ليست مسألة اختراع تعريف من الخيال ، و انما هي عملية وصف فحسب وصف أديان موجودة في دنيا الناس ، و ليس من حق أى باحث أن يخترع في هذا المجال شيئا من عند نفسه ... و بما أن الحقيقة هي أختلاف هذه الأديان أختلافا كبيرا فيما بينها ، و عدم اتفاقها ، واستقلالية كل دين عن الأخر استقلالية تامة فان محاولة التلاعب بالألفاظ في سبيل الجمع بينها أمر مرفوض ، ترفضه طبائع الاديان المتنافرة نفسها ...!!

ـ المبحث الثاني ـــ

مفهوم الدين عند الغربيين

رأينا قبل أن نعرض لمفهوم الدين في الغرب ، أن نقدم لذلك بصورة موجزة عن ممارسات رجال الدين الغربيين إبان سيطرة الكنيسة في عصور ما قبل النهضة ، و ذلك لما تركته هذه الفترة ، من انطباعات و تصورات هامة في الذهنَية الغربية عن الدين والتدين ... !

يقول الأستاذ محمد عبده ، واصفا موقف الكنيسة من العلم والعلماء و الحريات « ... أنشئت المراقبة على المطبوعات ، و حتم على كل مؤلف و كل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذى عين للمراقبة ، وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئا لم يعرض على المراقب ، أو ينشر شيئا لم يأذن المراقب بنشره .... أنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم و الفلسفة عندما خيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذته ، خصوصا في جنوب فرنسا و ايطاليا ، أنشئت هذه المحكمة الغربية بطلب الراهب (توركماندا) ... قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ، ففي مدة (18)سنة من (1481 – 1499 حكمت على (10220) عشرة آلف و مائتين و عشرين شخصا ، بأن يحرقوا و هم أحياء ، فأحرقوا و على (6860) ستة آلاف و ثمانيمائة وستين شخصا بالشنق بعد التشهير ، فشهروا و شنقوا ، و على سبعة و تسعين آلفا و ثلاثة و عشرين شخصا بعقوبات مختلفة ، فنفذت ثم أحرقت كل توراة بالعبرية ... أشتدت محكمة التفتيش ــ بفروعها المنتشرة في سائر أوربا ــ في طلب المجرمين طلاب العلم ... و نيط بها كشف البدعة و الحكم فيها مهما أشتد خفاؤها : في المدن ، في البيوت ، في السراديب ، في الانفاق ، في المخازن ، في المطابخ ، في المغارات ، في الغابات و في الحقول ... فوفت بما كلفت به ... (وزيد على ذلك) بأن قرر مجمع " لاتران " أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس ، و

الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة ـ الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها ـ تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت ، لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد ، فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أختها ، و ما يبدر من لسانه في بيته و ما يظهر في أعماله بين أهله ، فإذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئا من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه ، رفع أمره الى المحكمة ، فينقض شهاب التهمة عليه و يوضع تحت التعذيب حتى يعترف لقد أوقعت هذه المحكمة المقدّسة من الرعب في قلوب أهل أوروبا ما خيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر ، اذا نظر حوله أو التفت وراءه ان رسول الشؤم يتبعه ، و ان السلاسل و الأغلال اسبق الى عنقه و يديه من ورود الفكرة العلمية اليه ... لقد حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها عام 1481 الى عام 1808 . على ثلاثمائة و أربعين ألف نسمة منهم نحو مائتي الف ، أحرقوا بالنار أحياء ..)[1].

ويقول المؤرخ " لورنتي " الذى أتيح له البحث بمطلق الحرية في أرشيفات محكمة التفتيش في اسبانيا و حدها .. أن هذه المحكمة قد قدمت الى النار أكثر من واحد و ثلاثين الف نفس . و أصلت أكثر من مائتين و تسعون آلفا عقوبات أخرى تلي الأعدام في صرامتها ، و هذه الاحصائية لا تشمل الذين أودت بحياتهم فروع هذه المحكمة في مكسيكو و ليما بأمريكا الجنوبية ، و قرطاجة ، و جزر الهند الغربية ،

---

(١) - محمد عبده - الاسلام و النصرانية بين العلم و والمدنية - منشورات الأنيس (موفم للنشر) - الجزائر - 1987 - ص (52 - 55) .

وصقلية و سردينيا و أوران و مالطة ..[1]

و من الثابت أنه كان لكل دولة أوروبية آنذاك محاكمها التفتيشية الخاصة بها و قد كان من صلاحيات هذه المحاكم التدخل في كل صغيرة و كبيرة تجرى في تلك المجتمعات ، و لعل المصير الذى لاقاه أشهر العلماء الغربيين الأوائل على أيدى رجال الكنيسة ، أمثال غاليلو[*] ، و كوبر نيكوس ، و بافون ، ونيوتن ، و جيور دانوبرونو ... و مئات غيرهم ، يكفي مثالا لمن أراد تصوّر مدى قساوة الظلم الذى ألحقته هذه المؤسسة بالعلم والعلماء في هذه المجتمعات ..!

بعد هذه التوطئة يمكن أن نفهم معنى الدين الذي يتحدث عنه الغربيون ، أو على الأقل يمكن أن ندرك ما أستقر في الذاكرة الغربية عن الدين و التدين عموما ! !

لقد قدم الغربيون عشرات التصورات المقتضبة للدين ، فالدين وفق المنظور الغربي ، هو الرباط الذى يربط الانسان بالله[2] و هو الشعور بالواجب من حيث هو قائم على أوامر الهية[3] ، و هو الشعور بالحاجة و

---

(١) ـ عبد الله المشوخي ـ موقف الاسلام و الكنيسة من العلم ـ مكتبة المنار الزرقاء الأردن ـ ط (1) 1402 ـ1982 ـ ص (39) .

(*) ـ تذكر المصادر أن غاليلو بعد التعذيب الشديد جثا على ركبتيه أمام الباب (أربان الثامن) و نطق بالاعتراف الآتي : « أنا غاليلو ، في السبعين من عمري ، سجين جاثي على ركبتيَ ، و بحضور فخامتك ، وأمامي الكتاب المقدس الذي ألمسه الآن بيدي أعلن أني لا أشايع بل ألعن وأحتقر خطأ القول و هرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور ... » ـ عبد الله المشوخي ـ المرجع السابق ـ ص (139) .

(٢) ـ التعريف للباحث (سيشرون CICERON) أورده في كتابه (عن القوانين) .

(٣) ـ تعريف (كانت ـKANT) في كتابه (الدين في حدود العقل) .

التبعية المطلقة[1] ، و الدين هو مجموع واجبات المخلوق نحو الخالق ... و نحو الآخرين ، و نحو نفسه [2] ، و الدين هو الأيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية و لا المكانية [3] . و الدين هو الأيمان بكائنات روحية [4] ، و الدين هو محاولة تصور ما لايمكن تصوره و التعبير عما لا يمكن التعبير عنه ، هو التطلع الى اللانهائي ، هو حب الله[5] ، و الدين هو العبادة . و العبادة عمل مزدوج : فهي عمل عقلي به يعترف الانسان بقوة سامية ، و عمل قلبي .. يتجه به الى رحمة تلك القوة [6] .. و الدين توجيه الانسان سلوكه وفقا لشعوره بصلة بين روحه و بين روح خفية ، يعترف لها بالسلطان عليه و على سائر العالم ، و يطيب له أن يشعر باتصاله بها [7] ... و الدين هو تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الانسانية ... ، و هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى يركزها البدائي في الكون[8] و الدين هو جملة العقائد و الوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله

---

(١) - تعريف (شلاير ماخر _ SCHLEIR MACHER) في كتابه (مقالات عن الديانة) .

(٢) _ تعريف الأب (شاتل _ CHATEL) في كتابه (قانون الأنسانية) .

(٣) _ تعريف روبرت سبنسر _ ROBERT SPENCER) في كتابه (المبادىء الأولية) .

(٤) _ تعريف تايلور _ TAYLOR) في كتابه (المدنيات البدائية) .

(٥) _ ماكس ملير _ MAX MULLER) في كتابه (نشأة الدين ونموه) .

(٦) _ تعريف اميل برنوف _ EMILE BUNAUF) في كتابه (علم الديانات) .

(٧) _ تعريف ريفل _ REVELL) في كتابه (مقدمة تاريخ الأديان) .

(٨) _ تعريف جويوة _ GUYAU) في كتابه (لا دينية المستقبل) .

ومع الناس ، و مع أنفسنا[1]. و الدين هو الجانب المثالي في الحياة الانسانية [2] ، و الدين هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزا أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا [3] ، و الديـن ـ كما يـراه دوركايم [4]هو مجموعة متساندة من الاعتقادات و الأعمال المتعلقة بالأشياء ـ أى المحرمة، إعتقادات و أعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية واحدة تسمى الملة [5].

و نشأة الدين حسب (جيمس فريز ـ G.FRAIZER) تبدأ بفكرة تقوم عل أساس عبادة الارواح الطبيعية أو أرواح الأفراد ، أى أنها تقوم على أساس الأعتقاد بوجود قوى غيبية غير مشخصة [6].

و اخيرا يعرف (أريخ فروم) الدين بأنه : كل نظام فكر وعمل ينبع من مجموعة و يَعطي للفرد اطار توجه ، و موضوع عبادة)[7].

(١) ـ تعريف ميشال مايير ـ MICHEL MAYER) في كتـــابه (تعاليم أخلاقية و دينية) .

(٢) تعريف (سلفان بيريسية ـ SYLVAIN PERISSI) في كتابه العلم و الديانات).

(٣) ـ تعريف سالمون ريناك ـ SALOMON REINACH) في كتابه التاريخ العام للديانات) .

(٤) ـ تعريف دوركايم ـ EMILE DURAIM) في كتابه (الصور الأولية للحياة الدينية) .

(٥) ـ د . محمد دراز ـ الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) مرجع سابق، ص (33 ـ 36) .

(٦) ـ نبيل السمالوطي : الدين و البناء الاجتماعي ، الجزء الثاني . مرجع سابق ، ص 25 .

(٧) ـ د . سيد الأطاسي : أبعاد الدين الأجتماعية ، مجموعة من الباحثين ، مرجع سابق ، ص (22) .

و لعلّ أهم ما يمكن أن يلاحظ على كل واحد من هذه التعريفات ما يلي : ينص التعريف الأول ، على أن الدين هو رباط الانسان بالله ، لكنه لم يحدد نوعية هذا الرباط ، و لا الأساس الذى يقوم عليه ، أهو الاختيار ام الاكراه ، و لا الكيفية التي يتم بها كما أنه لم يشر الى الغاية من هذه العلاقة بين هذه الأطراف .

أما التعريفان الثاني و الثالث ، فإنهما يجعلان الدين مجرد شعور انساني ، مكرسين بذلك مقولة أنّ الدين اختراع انساني وليس وحيا الهيا .

أما التعريف الرابع فرغم أنه يعطي الدين معنى أوسع و أشمل ، من سابقيه ، الا أنه لم يشر الى نوع الواجبات التي على الانسان أن يؤديها نحو خالقه ، و نحو نفسه ، و نحو الناس ،...

أما التعريف الخامس ، فهو ذو طابع فلسفي محض ، وهو يشير الى (الله) أكثر مما يشير الى الدين .

أما التعريف السادس ، فيغلب عليه التعميم و الابهام ، و هو لا يفرق على ما يبدو بين الدين و السحر و الخرافة .

أما التعريف السابع ، فانه يشبه التعريف الخامس في نظرته الفلسفية الى الدين ، حيث يصور الأديان في صورة ألغاز غامضة مبهمة لا سبيل لفهمها ، في حين أن هناك أديان يغلب فيها الوضوح على كل المجالات ، في المعاملات و الاخلاق ، وحتى في العبادات و العقائد .

أما التعريف الثامن ، فهو يقصر معنى الدين على العبادة رغم أن العبادات مهما تعددت و تنوعت تبقى مجرد جزء من الدين ، وليست كل الدين فالعقيدة هي الأساس في كل ديانة ، و العبادة ترجمة عملية للعقيدة واحدى أهم و سائل التدليل عليها ...

أما التعريف التاسع ، فانه يجعل أساس السلوك الانساني تجاه القوة الخفية هو الشعور ، و هو شعور يتولد داخل النفس الانسانية ، و ليس وحيا يَنزّل من طرف القوة الالهية .

أما التعريف العاشر ، فهو كسابقه يجعل الدين مجرد شعور بالتبعية

لمشيئات أخرى ، و هو هنا شعور مطلق الوجهة ، شعور لا يعرف له هدفا محددا ، بل ينتشر نحو الكون في عمومه ...!

أما التعريف الحادى عشر ، فيكاد يكون أقرب التعاريف السابقة الى العقل ، من حيث أنه يجعل الدين مجموعة عقائد ووصايا تحكم علاقة الانسان مع الله ، و مع الناس ، و حتى مع النفس ... و هو صنو التعريف الرابع ، و يحتمل من الانتقادات ما أوردناه في حق سلفه ، و لعل تميز هذين التعرفيين في نظرتهما الى الدين ، نابع أساسا من كون واضعيهما من رجالات الدين ، لا من الباحثين الاجتماعيين ...!

أما التعريف الثاني عشر ، فينقصه الوضوح و الشمول والتفصيل ، فهو يعرف الدين على أنه المثالية ، المثالية على إطلاقها ، دون أن يوضح المقصود منها فهل هي العقائد و التعاليم التي لاسبيل الى تطبيقها ، كما هو شأنها في الفلسفات ؟ أم أنها أفضل ما يمكن للانسان تطبيقه . كما هو شأنها في الأديان ؟ ثم ما هو مصدر هذه المثالية ؟ ! أهو الله ، أم الانسان أم الجماعة ؟ ! !

أما التعريف الثالث عشر ، فظاهر أنه يقيم علاقة بين الدين والكبت . فالدين هنا ، هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزا أمام الحرية المطلقة لتصرفات معتنقيه ، فهو اضافة الى أنه يربط مصدر الدين بالشعور الانساني ــ كسابقيه ــ فانه يضفي على الدين كذلك مفهوما سلبيا ..!

أما التعريف الرابع عشر فإنه يعتمد على الوصف الظاهري ، ويمتاز عن سابقيه بتحديد العلاقة بين مجموع المعتقدات والأعمال ، فهي علاقة اجابية تقوم على التساند و التكامل ، الا أنه يستخدم اصطلاح " الأشياء المقدسة " ، و معنى هذا أن الله ليس هو مقصود الدين و لا مصدره ، وإنما المقصود هنا أشياء أخرى (...) استمدت طابع قداستها من الانسان نفسه ... !

أما تعريف (فريزر) فانه يقيم مفهوم الدين على أساس فكرة التطور فالدين حسب تصور هذا الباحث اختراع انساني . ولده الخوف من القوى غير المنظورة ..

أما تعريف (أريخ) ، فإنه يعطي الدين معنى الايجابيّة عندما يصفه بأنه نظام فكر و عمل ، الا إنه يرجعه الى اختراع الجماعة الانسانية .. !
و يمكن للباحث أن يستخلص مما سبق مجموعة نقاط ، أهمها :ـ

أولا :ـ
عدم اتفاق التعريفات السابقة على معنى محدد للدين ، ولعل هذا يرجع أساسا الى أن الكتاب الذين صاغو هذه التعريفات ينتمون أصلا إما الى الديانة اليهودية ، و إما الى الديانة النصرانية ، و الثابت أن كلتا الديانتين لم تحتفظا بنقائهما ووضوحهما ...

حيث لم يكن يمضى على الواحدة منهما وقتا طويلا حتى تذوب في الأوساط الفلسفية ، و العقائد الخرافية المنتشرة آنذاك ، و لعل من أهم أسباب ذلك عدم استقرار تعاليمهما في أذهان المعلمين [1] و المتَعلمين على حد سواء نتيجة للاضطهاد الشديد الذى كان يلاقيه هؤلاء و أولئك من جهة ، و كذلك لقصور الوسائل التي يمكن بواسطتها حفظ هذه التعاليم من التحريف و الزوال ، حيث كانت وسائلهم الاساسية يومذاك تتلخص في الاعتماد على الذاكرة ، و الرواية بالمشافهة ... و ما شابه ذلك ! !

وقد أدى الامتزاج بين هذه الأضاد التي تضم تعاليم السماء وخرافات الأرض الى ضياع ما يمكن أن نصفه بالمعنى الواضح والمحدد لهذه الأديان ، و أصبح من المستحيل أن تصاغ في معنى واحد... فالحقيقة هي وجود خليط معقد من العقائد و التعاليم والفلسفات ، و لم يَبْقَ الأمر مقصورا على دين اسمه اليهودية أوآخر اسمه النصرانية !

لهذا فان عدم اتفاق الكتاب الغربيين على معنى محدد للدين ، جاء متأثرا الى درجة كبيرة بحقيقة الدين في الغرب ، فالدين هناك ليس له معنى واحداً ، ولا مفهوما واضحا . و ليس بامكان أحد أن يعطيه وحدة

(١) – المقصود بالمعلمين هنا ، هم تلامذة الأنبياء ، و كل الذين اضطلعوا بمهمة تعليم الناس الدين من بعدهم ...

المعنى ، أو يضفي عليه صفة الوضوح ... فالمسألة تاريخية و ليست اختراعية ..!

ثانيا :ـ

أن معظم الباحثين السابقين ينظرون الى الدين على أنه ثمرة مشاعر انسانية ، و ليس مجموعة تعاليم سماوية ، و لعل هذا يرجع كذلك الى تأثر كثير من هؤلاء الكتاب ، بالايحاءات التي ترسبت بفعل مضمون هاتين الديانتين ـ اليهودية و النصرانية ـ في عقول الغربيين و ووجدانهم...

فمن المؤكد أنه ليس كل ما في كتب هاتين الديانتين من عند الله ، حتى إن قسما من اتباعهما بدأوا يعون أن كثيرا مما ورد في أناجيلهم و توراتهم ، يرجع الى اتباع أنبيائهم ، و اتباع تلامذتهم و ليس الى الأنبياء أنفسهم ، فلوقا و مرقس و يوحنا و برنابا ... كلهم ليسوا من الحواريين ـ أصحاب عيسى ـ و انما من اتباع تلامذة المسيح ـ عليه السلام ـ و حتى لو فرضنا جدلا ، أن هؤلاء كانوا من أقرب المقربين الى المسيح ، فان أحداً لا ينكر أنهم هم كاتبوا هذه الأناجيل . وليس المسيح عليه السلام لهذا فإن الأناجيل لا تخلوا مما يُدعَم أنها آراء أشخاص ، أكثر منها أقوال إله ، و مشاعر بشر أكثر مما هي تعاليم وحي ... فهي تضم آراء و توجيهات و نصائح و تصورات .. و مشاعر ، مصدرها في الدرجة الأولى هم كاتبوا الأناجيل ، لوقا ، و مرقس ، و يوحنا .. الخ .

كما أن الأناجيل تخاطب الناس بلسان البشر ، فالله في الأناجيل لا يكلم الناس مباشرة ، بل عن طريق كاتبي هذه الأناجيل ، مما يؤكد فكرة الشعور التي كاد أن يجمع عليها الباحثون السابقون ..!!

ثالثا :ـ

أن التعريفات السابقة تُضفي على الدين طابع السلبية و تجعله فوق ذلك قاهراً للأفراد ، و ملزما لهم . فهم لا يملكون ازاءه الا الخضوع و التسليم ، و أن كان البعض من هذه التعريفات لم يقل بهذا صراحة . . . الا أن

المتأمل لدلالاتها يستطيع أن يستشف ذلك بسهولة و يسر ... و لعل هذا يرجع أيضا الى الحقب الزمنية الطويلة التى عاشها الغرب في ظل الكنيسة ، و تحت سلطة رجال الدين المسيحي ، و في التوطئة التي قدمنا بها لهذا المبحث ، ما يؤكد هذه المسألة و يوفر علينا عناء الخوض فيها ثانية .. !

رابعا :ـ

إن جل التعريفات السابقة ـ ان لم نقل كلها ـ تفتقر الى تحديد غاية الدين و هدفه و لعل هذا راجع الى أن المجتمعات الغربية لم تعرف للدين غاية أصلا !

فرغم أنه باستطاعة الفرد البسيط أن يشعر بداهة أن هدف التدين هو السعادة في الدنيا ، و النجاة في الاخرة ... الا أن ممارسات الكنيسة ، و جبروت رجال الدين .. شككَ الناس في هذه البديهية ، خصوصا عندما قام رجال الكنيسة باقناع الناس بالقوة ، ان الخلاص في الأخرة غير ممكن ، الا بالشقاء في الدنيا ...

الشقاء الذى يقوم على الجهل ، و الفقر و الكبت ... و هو الأمر الذى أنسى كثيرا من الناس هذه الغاية الفطرية ، أو ربما دفع بهم الى تجاهلها أصلا فالانسان لا يستطيع أن يعيش حياة مهددة بهذه الآفات ... فكيف اذا فرضت عليه كلها مجتمعة ...؟ ! لاشك أنه سيبحث عن خلاصه في الدنيا قبل أن يفكر في خلاصه في الاخرة ... ، و لعل هذا الشعور القوى في نفس الانسان الغربي بضرورة البحث عن خلاص من الدين في الدنيا ، هو الذي أفقد هذا الانسان الأيمان بوجود أهداف ايجابية للدين .. !

بل إن كثيراً من الغربيين ، رسموا للدين أهدافا سلبية و جعلوه مسؤولا عن تخدير الشعوب و تجهيلها ... منطلقين في ذلك من ذكريات تاريخية مريرة عاشها آباؤهم و أجدادهم تحت سلطان الدين المسيحي ورجاله ... !!

ـ المبحث الثالث ـ

الدين في المفهوم الاسلامي

لقد ورد لفظ الدين في القرآن الكريم في آيات عدة ، و بمعانى شتى ، فهناك المعنى البعيد عما هو شائع لهذا الاصطلاح ، كما هو الحال في قوله تعالى : « مالك يوم الدين »[١] و كقوله سبحانه : «و كنا نكذب بيوم الدين »[٢] ، فالمقصود بالدين هنا هو الجزاء والحساب[*] .

و هناك آيات أخرى يقصد بالدين فيها ، الدين في معناه العام و الواسع سواء كان هذا الدين حقا أو باطلا . كقوله : «لكم دينكم و لي دين » [٣] أى لكم شريعتكم و منهاجكم و أسلوبكم في الحياة ... الخ ، و كقوله سبحانه : « و من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه و هو في الاخرة من الخاسرين »[٤] فالمقصود بالدين هنا أى دين يمكن للمرء أن يدين به غير الاسلام ، وكقوله تعالى : « و من أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله و هو محسن[٥] فالدين المقصود هنا ، هو الدين في معناه الواسع.

---

(١) - سورة الفاتحة : آية 4 .

(٢) ـ سورة المدثر : اية 46 .

(*) ـ يقول المفسرون ، إن يوم الدين هو يوم الجزاء و الحساب في الآخرة ، أنظر سيد قطب ـ في ظلال القرآن ج (1) دار الشروق ـ بيروت ـ ط (11) ـ 1985 ـ ص (12) ـ أما التسمية فيجوز أنها جاءت على هذه الصورة لأن اللدين سوف يكون هو المعيار الذى يحاسب عليه الناس في الآخرة ، فان فهمنا الأمر هلى هذا الأساس فان لفظ الدين الوارد في هذه الآية و ما شابهها يخرج عن معنى الدين العام .

(٣) ـ سورة الكافرون : آية 6 .

(٤) ـ سورة ال عمران : آية 85 .

(٥) ـ سورة النساء : آية 125 .

و كقوله تعالى : « ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك »[١] أى في دين حاكم مصر ، أو في قانون هذا الحاكم و شريعته ...

و هناك آيات أخرى قصر لفظ الدين فيها على الاسلام ، كقوله تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام »[٢] و قوله سبحانه : «أفغير دين الله يبغون ، و له أسلم من في السموات و الارض طوعا و كرها و اليه يرجعون »[٣] و كقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي ، و رضيت لكم الاسلام دينا »[٤] وكقوله سبحانه : « و ان أقم وجهك للدين حنيفا ، و لا تكونَنَّ من المشركين »[٥] ، و كذلك قوله تعالى : «.. و لاتأخذكم بهما رأفة في دين الله »[٦].

فالقرآن يصنف الأديان وفق معايير الحق و الباطل و الاسلام وحده هو الذى استطاع أن يحافظ على سلامة هذه المعايير ، وهذا متأت من كون الاسلام هو دين الحق :« و من يبتغي غير الاسلام دينا فلن يقبل منه »[٧] و ماعداه من أديان فباطلة ، والدين الحق هو الذى ينفرد بامتلاك المعايير السليمة .

و الأديان الباطلة تتفاوت ــ وفق المفهوم الاسلامي ــ في درجة بطلانها فهناك أديان أرضية ، أوحى بها عقل الانسان ، وثَبَّتَ وجودها في الناس جَهْلُ العوام ، أديان تبلورت فكرتها أساسا في شعور الذين عاشوا حياة الخواء الروحي ، ... كالوثنيين الذين عاشوا في أفريقيا السوداء ، و الهند

---

(١) ــ سورة يوسف : اية 76 .
(٢) ــ سورة ال عمران : اية 19 .
(٣) ــ سورة ال عمران : اية 83 .
(٤) ــ سورة المائدة : 3 .
(٥) ــ سورة يونس : اية 105 .
(٦) ــ سورة النور : اية 2 .
(٧) ــ سورة أل عمران : اية 85 .

و الصين[*] ... و في بقاع أخرى .

و هناك أديان سماوية ، مصدرها الله سبحانه و تعالى ، وسبب بطلانها أنها لم تكن محصنة ضد آفات الانسان و الزمان ، فتعرضت للتشويه و التحريف في عقائدها و شرائعها و سائر تعاليمها ، حتى بات من المستحيل الاطمئنان الى صفاء منبعها ، أو الوثوق بصحة تعاليمها ، و مثال ذلك اليهودية و النصرانية .

و الاسلام ينظر الى هذا النوع من الأديان الباطلة ، على أنها مارست دور الدين الحق على مدار فترات متفاوتة من تاريخ البشرية ، الا أنها لم تدم على ذلك ، والاسلام إنما جاء ليجدد دورها ، و يصحح ما أصابها ، و يكمل ما إعتراها من نقائص ... !

فالاسلام بهذا هو رسالة الله التي حملها الأنبياء و الرسل على مدار التاريخ و في هذا المعنى يقول سبحانه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا و الذى أوحينا إليك و ما وصينا به ابراهيم و موسى و عيسى أن أقيموا الدين و لا تفرقوا فيه »[١] و في موضع آخر يقول جل من قائل واصفا نبيه محمد (ص) . و ما جاء به : « .. جاء بالحق و صدق المرسلين »[٢] أى أن الحق الذي جاء به رسول الله (ص) موافق و مصدق للذى جاء به المرسلون من قبل . !

هذا من حيث تصنيف الاسلام للأديان !

أما المعنى الذى يعطيه القرآن لهذا اللفظ ، فاننا لوتأملنا بعض الآيات التي ورد فيها الحديث عن الدين كاصطلاح ، سنجدها تضفي عليه معنى شاملا واسعا ، فالدين في الاسلام هو منهج كامل للحياة ... هو قانون

(*) – نذكر هنا أنه وجدت أديان وثنية ، قيل أنها تطورت عن أصول سماوية و هناك من المؤرخين المسلمين من قال بهذا ... و نحن لسنا بصدد مناقشة هذه المسألة لصعوبة ــ ان لم نقل لا ستحالة ــ القطع فيها ... !

(١) ــ سورة الشورى : آية (13) .

(٢) ــ سورة الصافات : آية (37) .

تحكم علاقات الناس . مع أنفسهم و مع غيرهم . و مع الكون من حولهم قال تعالى : « ... لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجا ... »[١].

فالدين كما يتحدث عنه القرآن ، يمتد الى جوانب الحياة كلها ، ليشمل الفكر و الاعتقاد ، و الاجتماع ، و السياسة ، ... يقول سبحانه : « ... قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! »[٢] فسياق الآية يؤكد على أن الدين الذى كان يدعو اليه شعيب عليه السلام ، يمس جميع جوانب الحياة بما في ذلك العقيدة و الاقتصاد ... !

كما يتضح معنى الشمول الذى يعطيه الاسلام للدين ، في قوله تعالى : « ... لكم دينكم و لي دين »[٣] أى لكم منهجكم و شرعكم و أسلوبكم في الحياة ، الذى يختلف عن منهجي و شرعي و أسلوبي ...

وهذا هو معنى الدين كما يفهم من القرآن الكريم ، و هو معنى يقوم على السعة و الشمول .

أما العلماء المسلمون ، فقد عرفوا الدين على أنه : « ... وضع الهي سائغ لذوى العقول السليمة ، باختيارهم الى الصلاح في الحال والفلاح في المآل[٤] .

و التعريف كما هو واضح ، يتضمن مقومات الدين الحق ، وهي :ـ

أولا :

مصدر الدين ، حيث لابد لكل دين من مصدر ، و مصدر الدين هنا هو الله سبحانه .

---

(١) - سورة المائدة اية (48) .
(٢) ـ سورة هود : اية (87) .
(٣) ـ سورة الكافرون : اية (6) .
(٤) ـ د . محمد دراز ـ الدين ـ مركع سابق ـ ص (33) ـ و أنظر كذلك . د . نبيل السمالوطي الدين والبناء الاجتماعي ـ مرجع سابق ـ (21)

ثانيا :ـ

المقصود بالدين، أى المعنيين به ، و المكلفين بتعاليمه ، و هم ذوى العقول السليمة حيث أن فاقدى العقل ، و القاصرين ، ليسوا ممن يعنون بالدين ...

ثالثا :ـ

الوسيلة التي يعرض بها الدين ، وهي تختلف من دين الى أخر ، و من قوم الى آخرين ، و هي حسب التعريف ، الاختيار وعدم الاكراه ...

رابعا :ـ

الغاية من الدين ، وهي إرشاد الناس الى الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة .

فهذه عناصر عامة يتضمنها كل دين من الأديان ، الا أننا لوتأملنا جوهر هذه العناصر ، فاننا سنجدها لا ترسم الا حدود الاسلام وحده ، أما ماعداه من أديان فان صلتها بها اما واهية ، كما هو حال قلة قليلة منها ، أو منبترة تماما ، كما هو شأن الأكثرية الباقية ...

فمعظم الأديان أصيبت في مصادرها ، ولم يبق الله ـ سبحانه ـ هو مصدرها بل أصبح البشر هم هذا المصدر ، ممثلين في الرهبان والقساوسة ، و رجال الدين على العموم ...

و أديان أخرى أصيبت في وسيلة الدعوة ، و تحولت عن الاختيار الى الاكراه و الارهاب .

وقسم آخر تحول عن هدفه في هداية الناس ، و اصلاح حالهم ، الى استغلالهم في خدمة مصالح القائمين على الدين ، واستعبادهم لصالح الأغنياء و المتسلطين ..

و معظم الأديان قد جمعت بين هذه الآفات جميعا ... !

ـ الفصل الثاني ـ

نشأة الدين

أ ـ النظريات الوضعية :

المبحث الأول : النظرية الطبيعية .
المبحث الثاني : النظرية الروحية (الحيوية) .
المبحث الثالث : نظرية برجسون .
المبحث الرابع : النظرية التوتمية (الدوركايمية)
المبحث الخامس: آسس النظريات الوضعية .

ب ـ التفسير الاسلامي :

المبحث الأول : أصل الانسان في الاسلام .
المبحث الثاني : ثوابت التصور الاسلامي حول بداية الدين

لقد أثبتت الدراسات الانثروبولوجية ، و من قبلها كتب التاريخ ، و مذكرات الرحالة ... ان الدين كان ملازما للانسان مذكان .. و أنه وجدت شعوب من غير حضارة ، ... و ما زالت تعيش أم تجهل أسباب العلم ... الا أنه لم يعثر قط على أقوام في الماضي أو الحاضر عاشوا من غير دين ... !

فبداية الوجود الديني مرتبطة ببداية الوجود الانساني بأوثق رباط... !

و الباحثون لم يختلفوا حول هذه المسألة ، و الاختلافات الظاهرة الآن إنما هي في المحاولات التي يبذلها هؤلاء في تفسير الكيفية التي وجد بها الدين ... !

فالمنكرون للمصدر الالهي للدين ، المؤمنون بتعليلات الفلسفة المادية حول الكون و الانسان . يرون بأن الدين اختراع مبكر من اخترعات العقل الانساني ... اختراع دعت اليه أسباب موضوعية واجتماعية أحيانا ، و أخرى شاذة عن الطبيعة المنسجمة ، و خارقه لقدرة العقل الادراكية .. في أحايين أخرى .. !

فالواقع بمختلف ظروفه ، ـ المادية و الروحية ، الطبيعية والتأملية .. هو الذى أسهم في بلورة الوجود الديني في الحياة الانسانية ... ! .. هكذا يتصورون ... !

أما المؤمنون بالدين ، المعتنقون لتعاليمه ، فيعتقدون أن مصدره ليس هو الانسان و لا الظروف و انما هو الله ، خالق الانسان ، وخالق الظروف ، و خالق الكون و الحياة ... !

فهناك إتجاهان في هذا الموضوع ، اتجاه وضعي ، إعتمد أفراده بالدرجة الأولى على المنطق العقلي . و من ثمّ على بعض الشواهد الطقوسيّة عند بعض القبائل البدائية المعاصرة ... ! !

و اتجاه آخر يؤمن أتباعه بما جاء في الدين نفسه بهذا الخصوص ... !

و هذان الاتجاهان هما موضوع حديثنا في المباحث التالية بحول الله.. .!

أ ـ النظريات الوضعية :

رأينا من المفيد أن نقدم لهذا الموضوع بما يؤكد أقدمية هذا الاتجاه الذى ينطلق أساسا من قدرة العقل ، و من انكار ما وراء الماديات والمحسوسات ... !

فالقرآن الكريم يخبرنا في مواضع كثيرة ، أنه ما من قوم الا وكان أكثرهم ينكرون أن يكون الله هو مصدر الدين ... ويرجعون ذلك الى الأنبياء ... الذين يضطلعون بمهمة ابلاغه الى الناس .

فالدين في نظر هؤلاء ما هو الا تحايل على الناس ، و خداع لعقولهم و مشاعرهم ، تقف وراءه عبقرية قلة من الرجال الدهاة الذين يبحثون عن السيادة و التحكم ... !

و الآيات القرآنية التي تصف مثل هذه التصورات ، أكثر من أن نحيط بها في مثل هذا المقام ...

و نذكر منها ما ورد على لسان قوم نوح ، و هم من أقدم الأقوام الانسانية .. « ... فقال الملاء الذين كفروا من قومه ، ما نراك الا بشرا مثلنا ، و ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى و ما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين .. »[١].

و قوله سبحانه : « أم يقولون أفتراه .. »[٢].

و قول قوم هود : « قالوا ياهود ما جئتنا ببينة ، و ما نحن بتاركي الهتنا عن قولك و ما نحن لك بمؤمنين .. »[٣]، و قولهم أيضا « سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين ان هذا الا خلق الأولين ، و ما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم .. »[٤].

---

(١) – سورة هود اية (27) .
(٢) ـ سورة هود ، اية (13).
(٣) ـ سورة هود ، اية (53)
(٤) ـ سورة الشعراء ، اية (136 ـ 139) .

وقول قوم صالح : «... و اننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب ..» [١]

و قولهم في موضع آخر : « .. قالوا إنما أنت من المسحرين ، ما أنت الا بشر مثلنا ، فأت بآية إن كنت من الصادقين .. » [٢].

و قول قوم شعيب : « .. قالوا إنما أنت من المسحرين ، وما أنت الا بشر مثلنا و ان نظنك لمن الكاذبين ... » [٣].

و قوله سبحانه : « .. و قال الذين كفروا إن هذا الا إفك افتراه و أعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا : أساطير الأولين أكتتبها فهي تملى عليه بكرة و أصيلا .. » [٤].

فالدين عند هؤلاء الأقوام جميعا ، هو أساطير و خرافات ، وسحر و افتراءات ، و هذا ما تكاد تجمع عليه النظريات الوضعية الحديثة ، حيث تزعم جميعا أن الدين صناعة انسانية ، سواء أكان صانعه الفرد أم الجماعة ، رافضة بذلك أن يكون الله هو مصدره ... فأساس هذا الاعتقاد كما بينا آساس قديم ، الا أن وجه الاختلاف بينه و بين النظريات الحديثة يكمن في أن أعداء الدين من القدماء كانوا يقولون بأن الدين صناعة انسانية ، دون تعليل مفصل ...

أما النظريات الحديثة فقد عللت ذلك و فصلته ، و زادت على ذلك أن عرضت آراءها و مزاعمها في ثوب علمي قشيب ، فهي في زعمها إعتمدت على الواقع و المنطق و استعانت بجميع وسائل البحث العلمي .. !

هذا هو الفارق بين الطرفين ، الا أن الاختلاف في المنهج ، لم يحل دون التطابق في النتيجة .. كما سيتضح أكثر في الصفحات القادمة بحول الله .

---

(١) ـ سورة هود ، آية (62) .
(٢) ـ سورة الشعراء الايات ، (153 ـ 154) .
(٣) ـ سورة الشعراء : آية (185 ـ 186) .
(٤) ـ سورة الفرقان ، آية (4 ـ 5) .

ـ المبحث الأول ـ

النظرية الطبيعية

يرى أصحاب هذه النظرية ، أن الدين محاولة أولى قام بها العقل الانساني لتفسير الظواهر الطبيعية ، و لا سيما تلك التي تبعث في النفس العجب و الدهشة ، أو الخوف و الرهبة ... !

فالنظرية الطبيعية تضم اتجاهين اثنين ، إتجاه يعتمد في تفسير نشأة الدين على الطبيعة المستقرة ، التي تبعث في النفس العجب والدهشة ، و إتجاه آخر يعتمد في تفسير هذه النشأة على الطبيعة الشاذة ، التي تبعث بدورها في النفس الخوف و الرهبة ....

ـ الطبيعة المستقرة ـ

يعتبر (ماكس موللر) من أشهر زعماء هذا الاتجاه ، و قد فصل آراءه بهذا الخصوص ضمن دراسته التي أطلق عليها عنوان : « علم الأساطير المقارنة »[١].

و هو يرى أن العامل الأساسي في إثارة الفكرة الدينية هو التأمل و النظر في مشاهد الطبيعة التأمل الذي يجعل الانسان يشعر بمزيد من الدهشة و العجب ، فيخلص من التفكير الى أنه محاط بقوى مستقلة عن ارادة البشر يخضع أفراد المجتمع لتأثيرها و لا قدرة لهم على تعديل نظامها .

و موللر يستند في ذلك الى المبدأ القائل أنه لا يوجد شيء في العقل ما لم يكن موجودا في التجربة من قبل ، فمن تطبيق هذا المبدأ على الدين ، قرر أنه لا يتحقق شيء في عقيدة الانسان ، ما لم يكن قد أتى من قبل عن طريق حواسه ، فالدين يقوم على التجربة و الملاحظة و المشاهدة ...

---

(١) ـ د . نبيل السمالوطي ـ الدين و البناء الاجتماعي ـ جـ 2 ـ مرجع سابق ـ ص 64 .

كما قام بتطبيق المنهج اللغوى المقارن ـ مستفيداً من تخصصه في علم اللغة أو الفيلولوجي ـ على نصوص الكتب المقدسة في الديانة البراهمية (الفيدا) . حيث وجد أن أسماء الآلهة التي تضمنتها هذه الكتب تعبر في الواقع عن قوى طبيعية ، و يضرب مثلا على ذلك باسم الـه يدعى (أجني ـ AGNI) و هو أحد آلهة الهند الرئسيين و هو لفظ مقدس يستخدم للدلالة على النار و بتتبع الأصل اللغوى لهذا اللفظ ، تبين أنه موجود في كثير من فروع اللغات المعروفة باسم (اللغات الهند و أوروبية) ففي اللغة اللاتينية وجد بلفظ (أجنيز ـ AGNIS)و في اللغة اللتوانية ـ أوجنيز ـ UGNIS) .

فاستخلص (موللر) من ذلك أن هذا اللفظ كان بدائيا ، وكان لفظا عاما في تلك اللغة قبل أن تنفصل و تختلف ...

و بما أن اللفظ المقدس في تلك اللغات البدائية الأولى ، يرمز الى عنصر طبيعي فان موللر يستنتج من هذا ، أن الديانة الأولى التي عرفها الانسان ديانة طبيعية تتجه الى عبادة الطبيعة في قواها وعناصرها ...

كما أن هناك اعتبارات نفسية قامت عليها هذه النظرية ، مؤداها أن الظواهر الطبيعية المستقرة التي تحيط بالانسان و تثير فيه مختلف المشاعر و الأحاسيس كافية لان تثير فيه الفكرة الدينية ...

وقد ربط هذا الباحث كذلك ، الفكرة الدينية ، بفكرة اللامتناهي ، فكل شيء في الطبيعة يرمز الى قوة لا متناهية ، و يثير في نفوسنا الاحساس بهذه القوة ... و عن هذا الاحساس نشأ الدين ...

فالدين حسب هذا التصور ، هو اللغة التي يعبر بها الانسان عن هذا الاحساس الغامض الذى يداخله عن طريق الحسّ و القلب ...

و هو يرى أن الشعور الديني في بدايته يعترف بوجود عدة الهة ، الا أنه سرعان ما يبدأ بالتوجه نحو اله واحد ، و هو الاله الذى يصبح في نظر الانسان أقوى الآلهة جميعا ، و فيه وحده تتركز جميع صفاتهم[١] ...

---

(١) ـ د ـ أحمد الخشاب ـ الاجتماع الديني ـ مرجع سابق ـ ص 104ـ 106).

ـ *الطبيعة الشاذة* ـ

يري العالم الانجليزى (جيقونس ـ GEVONS) أن النظر في مشاهد الطبيعة كان على الجملة هو منشأ العقيدة الالهية ، و لكنه يقرر في كتابه : « المدخل الى تاريخ الديانات » أن الظواهر العادية ، كالتي قال بها موللر لا تكفي في إيقاظ هذه الفكرة ولأنها لتكررعرضها على الحواس ، تألفها النفس ، و لا تبقى في حاجة الى تفسيرها ، أما الحوادث الارضية المفاجئة و العوارض السماوية النادرة ، التي يضطرب بها النظام العادى ، كالبرق ، والرعد ، و العواصف ، و الصواعق ، و الخسوف ، و الطوفان والزلازل ... فان تأثيرها على المشاعر كتأثير دق الجرس ، في تنبيه الغافل وإيقاظ الوسنان ، ذلك أنه قد أرتكز في الغرائز البشرية ـ و الحيوانية أيضا ـ استحالة أن يحدث شيء من لا شيء . حتى إن الطيور و الدواب لتفزع عند سماع صوت مزعج ، و تلتفت الى وجهة الصوت شعورا بأن له فاعلا فكان من الطبيعي أن هذه الحوادث الفجائية الرهيبة تزعج من يشهدها ، و تحفزه الى السؤال عن مصدرها ، و بما أنه لا يرى لها سببا ظاهرا ، فانه يضطر أن ينسبها عقليا الى سبب خفي ذى قوة هائلة . اذ لا مخرج للعقل من هذه القسمة الثنائية ـ على أن (جيفونس) لا يرى مانعا من أن يكون التأمل في الحوادث العادية و السنن الكونية المستقرة ، باعثا أيضا لهذا الشعور ، و لكنه يرى أن ذلك لا يكون الا بنظرة ثانية ، عند هدوء البال و نضج الفكر ، و انزياح أسباب السهو و الغفلة ، و على هذا يكون شعور الرهبة و الخشية أسبق أثرًا في التدين من شعور الاعجاب ...»[1]

و قبل أن نبدأ في مناقشة هذه النظرية ، نقول بأن التأمل في الكون و النظر فيه ، هو مما دعا اليه القرآن الكريم ، و أكد عليه في كثير من المواضع كما هو الحال في قوله سبحانه : « .. أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت

---

(١) ـ د . محمد عبد الله دراز ـ الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) ـ مرجع سابق ـ (125 ـ 126) .

و الى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، و الى الأرض كيف سطحت ... »[1] و قوله سبحانه : « فلينظر الانسان الى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأوض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، و عنبا و قضبا و زيتونا ونخلا ، و حدائق غلبا ، و فاكهة و أبا ، متاعا لكم ولأنعامكم ... »[2].

الا أن هدف الحث القرآني على التأمل في الكون ، ليس هو الاتيان بدين جديد ، و لا هو الشرود بالفكر الى ما وراء المادة ، و إنما هو وعي الكون المادى الذى يعيش الانسان داخله ، ليشعر في النهاية بالطمأنينة الى دين الله ، عندما يراه منسجما مع كون الله ....

والقران يخبرنا أن ابراهيم (عليه السلام) كان انسانا كثير التأمل ... الا أن التأمل وحده لم يوصله ، رغم حلمه و أناته ، الى ما تطمئن اليه نفسه ، ... فبمجرد أن رأى القمر بازغا .. قال : هذا ربي . فلما أفَلَ و غاب ... ورأى الشمس بازغة قال : هذا ربي .. هذا أكبر ... فلما أفلت كفر بها كما كفر بالقمر ... وأعلن عن ضياعه و ضلاله ، و أعترف بعجزه عن ادراك ما تطمئن اليه النفس ... و كذلك نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) .. فقد علمنا أنه كان يقضي في غار حراء من كل عام شهرا أو يزيد ، يتأمل خلاله في الكون و الحياة ... لكنه لم يستطع أن يصنع من وحي تأمله دينا ، و لا نصف دين ...

وربما كان ذلك حال كثير من العلماء و الحكماء والفلاسفة ... الا أن احداً من هؤلاء لم يوصله تأمله الى شيء يمكن أن نسميه دينا أو شبيها بالدين ...

و أسباب ذلك كثيرة ... منها ، أن الانسان لا يطمئن طمأنينة مطلقة الى نتائج تأملات العقل وحده ، خصوصا اذا كان ميدان التأمل واسعا و محفوفا بالمجهول كما هو شأن الكون ...

---

(١) ـ سورة الغاشية : الأيات من (17 ـ 20) .
(٢) ـ سورة عبس : الأيات (24 ـ 32) .

كما آن الدين بمعناه السماوى لا يمكن أن يكون ثمرة للتأمل الانساني فتأمل الانسان في الكون بمعزل عن تعاليم الدين ، قد يقوده الى الأيمان بوجود خالق لهذا الكون ، لكنه سيعجز لا محالة عن ادراك حقيقة هذا الخالق جل شأنه ، مما قد يوقعه في شرك تقديس المخلوقات ... و هكذا يقصر التأمل بصاحبه عن بلوغ الحقيقة الكاملة و يبقى الدين بمعناه السماوى فوق قدرة إبتكار العقل الانساني، لأنَ الانسان حتى لو توصل عن طريق التأمل وحده الى وجود الله سبحانه ، فإنه يستحيل عليه أن يصل من نفس الطريق الى ادراك صفاته العديدة الكاملة ، و لا الى وسائل عبادته و سبل مرضاته ، و لا الى الايمان بحياة آخرة أساسها الثواب و العقاب ، و لا الى ما سوف يؤول اليه الانسان من دار ، الجنة أو النار... فجل هذه الأمور لا صلة بينها وبين التأمل في مظاهر الطبيعة المختلفة ، و ان لم تحصل معرفتها عن طريق الإخبار يستحيل الحدس بها عن طريق التأمل.

إذن فالتأمل قد يكون وسيلة من وسائل حبك الأساطير حول الخالق و الكون و الانسان ... و بالتالي قد يكون أداة فعالة في صناعة الأديان التي غلب عليها الطابع الأرضي .. و التي يطلق عليها العلماء المسلمون (النِحَلْ) ... ! !

أَما الأديان السماوية ، فان دور التأمل فيها لا يعدو تعزيز الأيمان بمصدرها و التشبث بتعاليمها ...

و هذا من أهم ما نأخذه على هذه النظرية ، أنها تضع الأديان جميعًا في صعيد واحد ، و تجري عليها أحكاما واحدة ، دون مرعاة للاختلافات الكبيرة الموجودة بينها ، و التي تمس المصدر ،والعقائد ، و العبادات ، و المعاملات .. و كل المجالات ...

و مما ساعد على الوقوع في هذا الخلط ، الانطلاق في دراسة نشأة الدين من نظرة فلسفية يونانية قديمة ، تقوم على الفصل بين الخالق و الخلق ... مستندة في ذلك الى دقة القوانين التي تحكم مسار الأفلاك و حركة المخلوقات ، فهي كفيلة ــ حسب زعمهم ــ بتعويض التدخل الالهي

في شؤون الكون ...

كما أن المنهج الذى استخدمه أنصار النظرية الطبيعية ، كان هو الآخر من الأسباب الأساسية التي عمقت خطأ هذه النظرية وانحرافها ...

فموللر ـ مثلا ـ أعتمد في تفسيره على عدة عوامل ، كانت هي الأساس في كل ما توصل اليه من إستنتاجات و آراء ...

إعتمد علي عامل منطقي يتمثل في المبدأ التجريبي العام الذى يرجع الى (جون لوك) و الذى يقول بأن التجربة الحسية هي التي تخط مختلف الخبرات على صفحة العقل البيضاء : « فلا يوجد شــــيء في العقل ما لم يكن سبق أن وقع في الخبرة الحسية للانسان .. »[1]

و مما هو معروف ، أن معالجة الحقائق التاريخية من خلال القوالب اللفظية الجاهزة ، و المقولات الفلسفية المثالية ، ليس بالمنهج العلمي الذى ترتاح إليه العقول السليمة ... فالحقيقة التاريخية شيء منفصل عن المنطق العقلي ، ودراسة التاريخ الانساني بالاسلوب المنطقي جريمة في حق التاريخ فالتاريخ أحداث وقعت ، ووقائع مضت ، سواء انسجمت مع المنطق أم لم تنسجم ..

و ليس لأحد الحق في أن يلوي أعناق الحقائق التاريخية ، ليحشرها داخل قُمْقُم المَنْطَقَة العقلية ، فالمنطق مسألة عقلية مَحْضَةَ ، تخضع لمقدمات فلسفية و تحكم بترتيبات منهجية ، .. أما التاريخ فيحوي خليطًا عجيبا من الأحداث الفوضوية ، و المعجزات الكونية ، و الممارسات البشرية .. و الوقائع الشاذة .. و كل هذا مما لا يقع تحت طائلة المنطق بحال ...

و عامل آخر استندت اليه هذه النظرية ، هو العامل النفسي ، والمتمثل في شعور الانسان بالرهبة و الدهشة و العجز ازاء مختلف الظواهر الطبيعية التي تحيط به ...

وقد قدم (ساباتيه) نقدا وجيها لهذا الرأى ، مؤداه : « أن شعور

---

(١) ــ د. نبيل السمالوطي ـ الدين و البناء الاجتماعي ـ مرجع سابق ص (64)

الرهبة و الخوف من القوى العلوية لا يكفي وحده لتفسير الفكرة الدينية ، و لا بد لها من شعور آخر يوازيه و يلطف من حدته ، ذلك أن الخوف اذا أستأثر بالنفس سحق الإرادة و شل الحركة ، وولد اليأس ، و من وقع فريسة للرعب ، ان لم يتصور امكان الخلاص لم يفكر في البحث عن عون ينقذه من الخطر الذى وقع فيه ، فلا بد لتحقيق الشعور الديني من مقاومة الخوف و الرهبة بما يعادلهما من الأمل و الرجاء ، اللذين يبعثان على الدعاء والتضرع ، هذه هي حقيقة التدين .. »[1]

أما العامل الثالث و الأخير الذى قامت عليه هذه النظرية ، فهو العامل اللغوي ، حيث قارن (مولر) بين أسماء الآلهة في اللغات الهندو أوروبية أو ما يعرف باللغة السنسكريتية .. و خرج من هذه المقارنة ، بأن إشتراك هذه اللغات ذات الأصل الواحد في أسماء الآله؛ ، و إرتباط دلالات هذه الألفاظ بعناصر الطبيعية ، دليل على أن الديانة الأولى للانسان ديانة طبيعية ...

و هي نتيجة كما ترى مبنية على أساس أن اللغة السنسكريتية هي أقدم لغة عرفها الانسان ، .. و هو زعم لا يقوم عليه دليل ، والمسألة فيها خلاف كبير ...

و من غير المقبول علميا ، أن تبنى نتيجة يقينية ، على مقدمات ظنية ، و معلومات خلافية ...

وزيادة على ذلك فقد أثبت كثير من الباحثين أن للبراهمة الهنود الهة تحمل أسماء لاصلة لها بعناصر الطبيعة ، مما ينفي هذا الأساس ألهام الذى استندت اليه هذه النظرية ...

---

(١) ــ د . محمد عبد الله دراز ــ الدين ــ مرجع سابق ــ ص (127) .

ـ المبحث الثاني ـ

النظرية الروحية (الحيويّة)

أول ظهور للاتجاه الروحي في شكل نظريّة كان على يد العالم الانجليزى (تايلور) ضمن كتابه (الحضارة البدائية) ، و ملخص ما ذهب اليه تايلور بهذا الصدد .. أن أقدم ديانة عرفها الانسان ، هي الاعتقاد في الأوراح و عبادتها .

و يقرر ان الاعتقاد في التفس الانسانية كان بمثابة الفكرة الرئيسية التي يقوم عليها الدين البدائي ، و تايلور يتساءل كيف أصبحت النفس الانسانية موضوع عبادة ؟ . و كيف تحولت النفس الى روح ؟ .

في نظر تايلور نشأت الفكرة من إعتقاد الانسان الأول في الحياة المزدوجة التي يحياها في يقظته من جهة ، و في نومه من جهة أخرى ، فقد تصور الرجل البدائي الحياتين على إعتبار أنهما حقيقتان واقعتان ، بمعنى أن مايراه في نومه يعبر تعبيرا يقينيا عن حياة حقيقية لها مقومات الحياة التي يحياها أثناء اليقظة .

فحين يرى في نومه أنه سافر أو قاتل ... فهو يعتقد أنه فعل ذلك يقينا! ! انتهى " البدائي " بعد ذلك الى القول بأن الانسان مكون من كائنين. أحدهما الجسد ، و هو الكائن الموجود في المكان الذى نام فيه ، و له صفات عادية من حيث الاستقرار وعدم الانتقال ... و الكائن الثاني كائن اخر له قدرة في ظل ظروف معينة على الانتقال من مكان الى مكان ، وهو الروح ، و هذا لكون الروح أثيرية لطيفة ، شفافة ، تستطيع أن تخترق الحواجز ، و أن تنفذ في أجزاء الجسم ..

و الروح في نظر كثير من المجتمعات لها القدرة على الإضرار وانزال النكبات بالناس من عالمها الخفي . و هذه النفس رغم قدرتها الماديّة لا يمكن أن نلمسها أو نحسّها . و مع ذلك لا يمكن ـ كما يقول تايلور ـ أن نعتبرها عند هذا الحدّ روحًا ، ذلك أنها ما زالت محكومة بالجسد ، و

مرتبطة به ، و هي ما دامت كذلك فهي ليست أهلا لأن تعبد و تقدس ..
فصفة القداسة ــ حسبما يرى تايلور ـ لا تضفى على الروح الا بعد أن تتحرر من الجسد ، فعند هذه المرحلة ، يبدأ الانسان في تقديس الروح ، و هو لا يستطيع أن يتصل بها حينئذ الا بمراعاة طقوس خاصة .

وتزداد هذه الأرواح شيئا فشيئا ، الى أن يتكون عالم من الأرواح حول عالمنا الحي ، و تبقى لكل روح ميولاتها الخاصة ، كما تحاول كل روح أن تشارك في حياة أصحابها ، سلبا أو ايجابا ، تبعا لمشاعرها ازاءهم ....

و أعتقد « البدائي » كذلك أن جميع ما يصيب الانسان من نجاح و توفيق ، أو آلام ومصائب ، انما يرجع أساسا الى تلك الأرواح ، أو الى العالم الروحي .

وقد زاد إعتقاد الانسان بهذه الأرواح ، و هيمن على تصوره شعور قوى بأنها مالكة المرض و الشفاء ، ... و بذلك أصبح لزاما عليه أن يتملقها بالصلوات و القرابين و الأضاحي ... ليستجلب رضاها ، و يتجنب أذاها ..

و بهذا يفسر تايلور انتقال فكرة النفس الانسانية من الصورة التي تكون عليها في الجسم الانساني ، الى أن تصبح روحا ضمن عالم الأرواح المقدس ...

و بما أن الموت هو الذى حول تلك النفس الى روح مقدسة ، فإن أول عبادة انسانية في تصوّر تايلور انما اتجهت الى عبادة الموتى ، أى عبادة نفوس الاسلاف ، و كانت الطقوس الأولى طقوسا للموت ، و كانت القرابين الأولى قرابين غذائية لاشباع حاجات الموتى ، ، وكانت المذابح التي تقدم عليها هذه القرابين هي القبور و اللحود ...[١]

و أما بخصوص الشق الثاني من هذه النظرية ، و المتعلق بالاجابة على كيفية انتقال الانسان الى عبادة أرواح الكواكب والعناصر الطبيعية ، فلهم

---

(١) ــ د. أحمد الخشاب ـ الاجتماع الديني ـ مرجع سابق ـ ص(111 ـ 113)

في تفسيرها مذهبان : أما تايلور مؤسس النظرية فيرى ان العقلية البدائية فيها من سذاجة الطفولة ما يقصر بها عن التمييز بين الجماد و الحيوان ، و يجعلها تعامل كلا منهما معاملة الكائنات الحية ، كما يداعب الطفل دميته و يناجيها ، كأن فيها روحا .

و أما هربرت سبنسر ، فانه يرفض هذا التفسير ، بحجة أنه لا ينطبق على نفسية الطفل ، و لا على نفسية الحيوان ، فضلا عن العقلية البدائية ، و وَ يُرَجِّحَ أن عبادة الطبيعيات ليست نتيجة إلتباس عقلي كما زعم تايلور، بل وليدة إلتباس لغوي في أسماء الأسلاف المقدسين ، ذلك أن هؤلاء الأسلاف ، كانوا يسمون أحيانا بأسماء مواد طبيعية ، فكان بعضهم مثلا يسمى (نجما) والآخر (نمراً) و الثالث (حجرا) ... فانتقل التقديس من أصحاب تلك الأسماء الى الأشياء المسماة بتلك الأسماء نفسها ، خلطا بين الاسم المنقول لمجرد التمييز ، و الاسم الدال على أصل معناه ..[1]

و قد رأينا تعميقا للفائدة ، و انصافا للمنهج العلمي .. ان نثبت في ذيل هذا العرض المقتضب ، تعقيبا قيما للدكتور محمد دراز ، يلقي من خلاله مزيدا من الأضواء على جوانب مختلفة من هذه النظرية ، يقول الدكتور دراز : ... ليس المقصود بالروح هنا ــ حسبما يوحي به التعبير غير الموفق باسم المذهب الحيوى ــ مبدأ الحياة الحيوانية ، أعني تلك القوة االتي تقوم عليها وظائف النمو و التنفس و الحس و الحركة ــ بل المقصود نوع آخر أسمى من ذلك و هو مبدأ حياة التفكير و الارادة المنظمة ، و العاطفة ، والضمير ، و بالجملة مبدأ الحياة العاقلة الرفيعة ...

كل واحد يستطيع أن يميز بين هذين النوعين ، و يدرك أن هذا الروح الذى هو خاصة انسانية ، ذو كيان مستقل عن ذلك الروح المشترك بين الانسان و الحيوان ، فنحن نرى النائم و المغمى عليه والمصروع .. يتنفسون و يتغذون و يشمون ، فهم أحياء بالحياة الحيوانية ليس غير .

---

(١) ــ د . محمد عبد الله دراز ـ نفس ـ مرجع سابق ـ ص (133) .

حتى تعود اليهم تلك القوة الخاصة فيعود اليهم شعورهم المنظم و تفكيرهم المستقيم ..

هذه التجربة تجربة صحيحة ، و الفكرة التي أستنبطت منها ، وهي التمييز بين القوتين ، فكرة سليمة ، لا يزال العلم يقررها حتى يومنا هذا .

و لكن الفكر إذا أرسل على سجيّته لا يقف عند هذا الحد في الاستنتاج بل إنه يصعد من التفرقة العملية بين الوظيفتين الى التفرقة الذاتية بين القوتين فيجعل منهما مبدأين منفصلين ، و جوهرين مستقلين ... حتى اذا ما تقرر عنده هذا الطابع الاستقلالي انتقل به خطوة أخرى ، ذلك أنه متى اقتنع بأنَ الروح العاقلة ، حين تغيب عن بدنها بالنوم ، لم تصبح عدما محضا ،أخذ يتساءل : لم لا يكون الأمر كذلك في انفصالها بالموت؟ نعم ان تناوب الحياة والموت على الشخص الواحد لم يتحقق في التجارب العادية كتبادل اليقظة و النوم عليه ، و لكن الحكم بعودة الروح الى البدن بالفعل أوعدم عودتها اليه ، شيء و الحكم بأنها بانفصالها قد أصبحت عدما شيء آخر لم يقم عليه دليل ، بل تأباه الطباع السليمة . وتقاومه غريزة الحياة النفسية الموصولة من أحد طرفيها بماض لا تطيق تناسيه ، و تحرص على استبقاء ذكرياته ، و من الطرف الآخر بمستقبل تنتظر فيه عودة الغائب و ان بعدت غيبته ، ووجدان المفقود و لو طال فراقه ، بل نقول ان هذا الحكم تأباه العادة العقلية التي تستمد أحكامها من تجارب الواقع و سننه المستمرة فكما أنه ليس من المألوف أن شيئا يصبح لا شيء ، و كل ما يتصوره العقل في فقد الأشياء ، إنما هو تغيّرَ في صورها ، و تبدل في أوضاعها الزمانية و المكانية ، فالتصور الطبيعي لظاهرة الموت أنها انفصال لعنصري المادة والروح ، و يرجع كل منهما الى طبيعته و بيئته : فتعود المادة الى عالمها ، و تأخذ الروح صورة أخرى من صور الوجود الغيبي ، و هكذا ينشأ الاعتقاد بوجود أرواح مستقلة عن الابدان ...

و هنا تجيء الحلقة الرابعة و الأخيرة في هذه السلسة المتصلة ، بل في هذه الدوائر المتداخلة من التفكير الطبيعي ، ذلك أن أنتقال العنصر الروحي

من عالم الشهادة الى عالم الغيب ، ليس من شأنه حتما أن يضعف سلطانه بل من المعقول أنه قد يزيده قوة ، لأن الروح في عهد اتصالها بجسم معين تظل شبه أسيرة لهذا الهيكل ، مشغولة بتدبيره ، و ليس لها سلطان مباشر على غيره من الكائنات ، و لذلك ليس من حقها في هذه الحالة أن تسمى روحا مسيطرة و انما هي نفس مسخرة ، فاذا ما قدر لها أن تفصل عن ذلك الجسم بالنوم أو بالموت أو بسبب آخر ، أصبحت جديرة باسم الروح ، و أضحت أوسع مجالا و أملك لحرية العمل في الميدان الذى تختاره ، إن نفعا و إن ضرا ، من حيث لا يشعر بها أحد .. "

و يستأنف د . دراز حديثه قائلا : .. و لا تَحسبنَّ هذه النقلة الأخيرة ضربا من النزوات الخيالية ، أو التجريدات العقلية ، المعتمدة على محض التسهي أو الفروض الممكنة ، فالواقع أن الفكر قد يلجأ اليها لتفسير ظواهر معيّنة لا يجد لها تفسيرا آخر ، ذلك أنه كثيرا ما يحدث في ميدان النشاط الانساني حوادث عجيبة ، تخرج خروجًا بينا ، علوا أو انحطاطا عن المستوى المألوف للناس ، أو المألوف للشخص نفسه في مجرى حياته العادية ، ... بل لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجود هذه الشواذ التي لا يعرف لها سبب ظاهر ، فتتسب الى سبب من تلك الأسباب المعنوية السرية ، فالعراف الماهر ، و الشاعر الملهم و الخطيب المفوه ، والبطل الموقى ، و الصائد الذى لا يخطيء سهمه ، و الحاسب السريع الحساب ، السديد الجواب ، من غير استعانة بقرطاس ولا قلم ، في أطول المسائل و أشدها تعقيدا ، و الألمعي الذى يظن بك الظن كأن قد راى و قد سمع ... كل أولئك ينسب نجاحهم وعبقريتهم الى أنهم قد أمدوا بروح خيرة ذات قوّة خارقة ، وبعكس ذلك يقال فيمن يصاب بالصرع أو الجنون ، و فيمن يولعون بالرذائل المبكرة ، أو الجرائم الشاذة المنكرة ، أنهم قد مستهم روح خبيثة شريرة ...

أضف الى هذا كله ، ضروبا من التجارب الجزئية في الرؤيا الصادقة و الفراسة السديدة ، و الالهام الكاشف ، و العلم بالحوادث البعيدة ساعة وقوعها ورؤية الاشباح ، و سماع الأصوات الى غير ذلك من الظواهر التي

لا يستقيم تفسيرها بسبب من الأسباب المادية ، و ليس يعنينا أن تكون كل هذه الملاحظات و التجارب والاستنباطات سليمة مستقيمة ، و لكنها في جملتها يظاهر بعضها بعضا على تكوين الاعتقاد في أمرين :ـ

الأول :ـ

ان في الوجود كائنات عاقلة لا يقع عليها الحس ، سواء أكانت في الأصل أرواحًا انسانية إنفصلت عن أبدانها ، أم كانت منذ بدايتها أرواحا مستقلة كالجن و الملائكة ، أم كانت أرواحا أعلى من ذلك و أسمى .

الثاني :ـ

ان هذه الكائنات الغيبية المزودة بتلك القوة الخارقة ، قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الانسانية و تترك فيه أثرا من آثارها العجيبة ...

هكذا تنشأ عقيدة التأليه من أقرب المقدمات و أيسرها : فذلك الكائن الغيبي الذى كانت المذاهب الكونية تستنتجه استنتاجا من مطالعة الآثار العظمى في عالم المادة ، أصبحت تشتق صفاته من جنس عمله نفسه ، و من نوع التجارب التي دلت عليه ، فهو لا ريب روح عظيم ، ذلك الذى يصنع الأسرار و العجائب الروحية ، و هو لا شك عقل خلاق ذلك الذى يمد العقول بمزيد من النور أو يكف عن امدادها ...

سيقول قائل : لكن اليس تنوع هذه الآثار العجيبة آية على إختلاف مصدرها كما أن تعدد الأنهار دليـل على أخـتلاف منابعها ؟ و اذا لم يكن في الغيب كائن فعال واحد ، بل كائنات كثيرة ، فهل كلها استوجب التأليه و العبادة ؟

الجواب :

ان ذلك يختلف باختلاف دقة الافهام و غلظها : فأما الأنظار القصيرة التى لا ترى أبعد من أنفها ، فانها تحد آلهتها و تعدهم بحدود الحوادث

الفردية أو النوعية و أعدادها ، فروح هذا الولي أو القديّس الذى استجيب عنده الدعاء ، و فاضت من حوله البركات اله ، و قرين ذلك الكاهن أو العراف الذى صدقت نبؤته أو فريسته اله ، و الروح الذى هبط على الشاعر المفحم فحل عقدة لسانه اله ، و الملك الذى أوحى الى صاحبه ما أوحى اله ...

و هكذا يقف الغافلون شاخصة أبصارهم في مواجهة كل أثر روحي عجيب ثم يخرجون سجدا أمام مصدره المباشر ، أو روحه الخاص الموكل به ، كأنما هو المنبع الحقيقي للقوة ، و قلما يتحررون من ربقة هذه الأسباب القريبة ، المحددة المجال ، الخاضعة لعوامل الحدوث و الفناء ، و تقلبات الظهور و الاخفاء للتفكر في الكائن الغيبي الأعظم الازلي الأبدى الذى بيده مقاليد الأرواح ، والأشباح على السواء ، فمثلهم كمثل الذي يرى تفرق منابع الأنهار في الأرض ، و لا يذكر أن مردها جميعا الى أصل واحد ، هو الماء الذى أنزله الله من السماء ، فسلكه ينابيع ...

و أما العقول النافذة في بواطن الامور الممتدة الى منابتها ، فانها لا تركن لحظة واحدة الى هذه الظلال المتقلصة ، و السحب المنقشعة ، و لا تلهيها حركات هذه الجنود المنتشرة في السموات و الأرض عن التوجه الى قيادتها العليا ...»[١]

و يقول الأستاذ عباس محمود العقاد منتقدا هذا المذهب : «... و لكن يرد على القول بعبادة الأسلاف أنها لم تستغرق عبادات الأقدمين في زمن من الأزمان ، و أن النائم يرى أطياف الغرباء كما يرى أطياف الآباء و يرى أطياف الأطفال الضعفاء ، بل يرى أطياف السباع التي يخافها في يقظته فلا يعبدها لانه يخافها و يتردد عليه أطيافها و يحول بينها و بين الطعام ..

« و مهما يبلغ من قصور العقل في المنهج فهم لا يجهلون أن " الروح" الذى يحوم حولهم في طلب الطعام و الشراب يحتاج اليهم و لا يستغني

(١) ـ د . محمد دراز ـ الدين ـ المرجع السـابق ـ ص (128 ـ 132) .

عنهم ، فان شاؤوا منعوا عنه القوت فأردوه ، و ان شاؤا و الوه بالقوت فأبقوه و لو لم يكن محتاجا اليهم لما حام حولهم و لا انتظر منهم أن يسترضوه باشباعه و اءروائه ، و لماذا لا يسعى لنفسه كما كان يسعى لها و هو مقيم بين ذويه ؟

و من الواجب أن نسأل ، اذا كان الهمجي كالطفل ينظر الى جميع الأشياء كنظرته الى الحي الذى يقصد ما يفعل : ترى لماذا لم يعبد الهمجي جميع الاشياء ؟ ! ... لابد أنه قد عرف قبل العبادة وصفا للربوبية يميز به طائفة من الكائنات عما عداها و يرى ذلك الوصف موفورا في هذا الشيء و غير موفور في سواه ..

و قد نقل السائحون عن اقزام أفريقيا الوسطى ــ و هم في حضيض الهمجية ــ أنهم يؤمنون برب عظيم فوق الارباب ، وعرفت من الهمج قبائل مسفة في الجهالة ، لم تعبد الأسلاف ، وجعلت ظواهر الطبيعة مسخرة لروح عظيم ... »[١]

و هناك انتقادات أخرى كثيرة لباحثين عديدين ، المجال لا يسمح بذكرها .. الا أن ما نأخذه على هذه النظرية ، تصويرها الانسان الأول في صورة الكائن الجاهل الساذج الغبي ... الذى لا يكاد يفرق بين الجمادات و الحيوانات ، أو الماديات و المعنويات ، و هو تصوير مجحف في حق الانسان ، تضافرت على اخراجه أخيلة رجالات الكراسي الوثيرة ...

و لو سايرنا هؤلاء الراجمين بالغيب ، و سلمنا بأن الانسان البدائي كان على مثل الصورة التي ابتدعوها ،، لا يفرق بين المخلوقات الجامدة ، و الكائنات الحية .. فاننا نتساءل .. كيف توصل ذلك البدائي الى التأمل في الجانب الروحي من الحياة ، و هو على ما هو عليه من الهمجية و الغباء ؟ ــ و كيف قفز بنظره الساذج و فكره البسيط فوق هذا الكون الواسع من الماديات ، الى عالم آخر خفي ، هو عالم الروحانيات .. و كلنا يعلم أن

---

(١) ــ عباس محمد العقاد ــ كتاب الله ــ المجموعة الكاملة ــ المجلد التاسع ــ (الفلسفة الاسلامية) ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ط 1 ـ 1978 ـ ص (23) .

المظاهر المادية أجذب لانتباه الجهال من غيرها ؟ !

أو ليست الماديات بأشكالها ، الثابتة و المتحركة .. كالجبال الراسية و البحار الهائجة ، أحرى باستقطاب انتباه الانسان التايلوري من عالم الأرواح المستور المجهول .. ؟ !

بل من الثابت أن أهتمام الانسان بالروح و عالمها الخفي وليد فترة متأخرة من فترات الحياة الانسانية ، و هو موضوع استحوذ على إهتمام أفراد معينين أطلق عليهم المتأخرون اسم الفلاسفة ، ولم تكن هذه المسائل مما يشتغل به العوام ..

فالفلسفة الانسانية بما أهتمت به من مسائل روحانية .. وتأملية ، تعد علامة على نضج العقل الانساني و تفتحه ...

كما أنه من النادر أن يقع في هذا الكون حادث دون أن يشاهد الانسان له سببا واحدا على الأقل ، حتى و إن كان هذا السبب في الحقيقة خادعا .... و دعنا نكون أثر دقة فنقول ، بأن الحوادث المبنية على أسباب ظاهرة ـ أو تبدو أنها كذلك ـ أكثر وأبلغ في النفس من الحوادث التي لا تفهم أسبابها ... و من المفروض أن يوجب غباء الانسان البدائي عليه الاعتقاد بأن " وسط " كل ظاهرة من الظواهر التي يشاهدها ، هو السبب في حدوثها ... اذأن قدراته العقلية لم تكن تؤهله لأن يربط بين ظاهريشده الأبصار ، و عالم خفي لا يكاد يفقه فيه شيئا ...

و لوأن الانسان البدائي كان يعلل الحوادث التي تقع أمامه بغير ما يراه بعينه المجردة ، حتى و ان كان التعليل مسفا في الوهم والضلال ، فانه حرى ان ينعت بالانسان العالم المفكر ... لا بالبدائي الهمجي ...

إننا اليوم عندما نرى إبراق السماء ، و إضطراب البحار ، وزلزلة الأرض و ثورة البراكين ... و غير ذلك من الظواهر التي تجرى على مرأى منا و مسمع فإننا لا نقف في تفسيرها عند حد ما نراه و نسمعه ... و إنما نرجع كل ذلك الى أسبابه الحقيقية ، فنقول : إن ابراق السماء ناجم عن تفريغ شحن كهربائية بين أقطاب سحب مثقلة ... الخ بمعنى أن الانسان المعاصر يعتمد في فهمه لما يدور حوله على شيء اسمه التعليل ،

فالتعليل اذن هو من سمات الانسان المتقدم ..
أما الانسان التايلورى ، فليست لديه القدرة على تعليل الأمور ، فهو كالطفل الذى لا يفرق بين الدمية الميتة و الكائن الحي ... وانسان هذا مستواه ، لا يتجاوز فهمه لظاهرة كالبرق ، حد إعتبارها تعبيرا عن غضب السماء ، و ان زلزلة الأرض علامة على غضب الأرض .. و هكذا سائر الظواهر الأخرى ...
و لما لا يفهم الأمور على هذا الوجه ؟ !
فهو يرى بأم عينه ، أن الجبل هو الذى يقذف الحمم البركانية ... فلماذا لا يعتقد أن الجبل غاضب ، و أن النيران المتطايرة هي علامات غضبه ...
و ما الذى سيجعله يقيم علاقة سببية بين أرواح الاسلاف و بين ثوران البراكين .
إن مستوى الأنسان التايلورى لا يؤهله البتة لأن يربط هذا الربط و لا أن يذهب في نظرته الى الظواهر من حوله أبعد من أنفه ...

* * * *

و لا يفهمن أحد هاهنا أن الباحث بهذا يؤيد المذهب الطبيعي في تفسير نشأة الدين ... فالمناقشة كلها مبنية على فرضية خاطئة استندت إليها جل النظريات الوضعية في دراستها للدين ... مؤداها .. ان الانسان البدائي متخلف العقل ، قاصر الفهم ، سطحي النظرة ... الخ .
و هو مالا نؤمن به بحال ... و سنناقش ذلك في صفحات قادمة بحول الله تعالى ...! ..

ـ المبحث الثالث ـ

نظرية هنرى برجسون (*)

تتميز نظرية الفيلسوف الفرنسي (هنرى برجسون ـ H. BERGSON عما سواها من النظريات الغربية الأخرى ، في أنها تميز بين نوعين من الديانات ، ديانة استاتيكية أو مغلقة ـ RELIGION STATIQUE) ـ وديانة دينامية أو نامية ـ RELIGION DYNAMIQUE)[1]

و برجسون يرى أن مصدر الديانة المغلقة هو الغريزة التي تثار تحت ضغط الضرورة الاجتماعية ...

و بيان ذلك « ... أنه لما كان نظام المجتمع و تماسكه يتطلب من الفرد انخلاعه عن بعض رغباته و تضحيته بجانب من حريته ، و تحمله أعباء تقتضيها مصلحة غيره ، و لا يعود عليه منها نفع مباشر ، و كان ليس من الهين أن يتقبل المرء عن طيب خاطر ، كل هذه التضحيات ، و كل هذا الحرمان ، اذ كانت الغريزة الاجتماعية عنده أضعف من أن تحمله على نسيان مصلحته فيسبيل خدمة المجموع ، و ان تجعل مثله كمثل النملة أو النحلة حين تذهل عن نفسها في خدمة النمل و النحل ، و كان استعماله ذكائه العادى في حساب مصلحته يدعوه بالعكس الى الأثرة و الى التضحية بمصلحة الآخرين في سبيل اصلاح شأن نفسه ، كان لابد من قوة أخرى تحفظ التوازن ، و تؤاخي بين مصالح الفرد والجماعة ، تلك القوة قد أعدتها الفطرة الانسانية في النفوس حين أشربتها الفكرة الدينية ، و ذلك أنها صورت أمامها المحظورات الاجتماعية بصورة مخيفة تجعل من المخاطرة

(*) ـ تعتبر هذه النظرية واحدة من النظريات التي يطلق عليها في مجموعها اسم (المذهب النفسي في تفسير نشأة الدين) .

(١) ـ د . نبيل محمد توفيق السمالوطي ـ الدين و البناء الاجتماعي ـ الجزء الثاني ـ مرجع سابق ـ ص (41) .

انتهاكها ، و مازالت تبالغ في هذا التصوير حتى خيلت للنفس أن هذه المحظورات يقوم على حمايتها حارس معنوى ، آمر ، ناه ، محاسب ينذر من ينتهكها بالبطش و العقاب ، و ذلك هو معنى الإله .

« .. و هنا يضيف برجسون أن صورة هذا الحارس ، و ان لم تكن وليدة التفكير المنطقي ، بل من عمل المخيلة التي يسميها بـ (الملكة المبدعة للعناصر الخرافية)[1]... فانها ليست من قبيل تخيل الفنانين ... و أصحاب الأساطير ، فإن ــ آثار هؤلاء لا تعدو أن تكون نوعا من الترف الذى يمكن الاستغناء عنه ، بخلاف الصورة الالهية التي تخلقها الحاجة الاجتماعية ، فانها و ان تكن وهما الا أنه و هم تفرضه الحياة ... و من أجله وجدت هذه الملكة الرمزية في طبيعة الانسان ، فإذا ما انتقلنا الى ميدان الأعمال اليومية ، وجدنا فيه كذلك فراغا نفسيا عميقا ، لا يملؤه الا العقيدة الالهية ... فالصائد حين يسدد سهمه الى فريسته ... و المريض في تناوله الدواء و تطلعه الى الشفاء ، .. و كل ذى حاجة ينتظرها و هو لا يدري ما قدر له من النجاح أو الاخفاق ... كل أولئك لو استلهموا عقولهم ، و قاسوا أعمالهم بقدر نتائجها المحققة أو الغالبة ، لقعدوا عن السعي و لوقف بذلك دولاب الحياة ، غير أن دفعة الحياة حركة تأبى الوقوف و الجمود ، فكان لا بد لها من ثقل تضعه في الكفة الأخرى من الميزان النفسي لترجح به جانب العمل برغم كل تفكير و حساب ، وما ذلك الا الامل تبعثه ، و الاعتماد على الحظ المحتمل تقدره ، و لا تزال بهذا الحث و التشجيع حتى تصور أمام النفس ارادة خفية يركن القلب اليها و يعتمد عليها ، تلك هي ارادة (الاله المستعان) كما كان ذلك

(١) ـ أحمد الخشّاب ـ الاجتماع الديني لمفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملية ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ 1970 ص (85) .

السلطان ، سلطان (الاله الديان) ... »[1] .

و حسبما يرى برجسون ، فإن الديانات المغلقة تنطوي على أمور غير معقولة ، فيداخلها السحر ، و و تخالطها الأساطير والخرافات ، وما ذلك الا بفعل تلك الملكة التي تمكن الانسان من أن يتصور موجودات خيالية ينسب اليها صفات عديدة ... فقد يتصورها في بادىء الأمر أرواحا ثم تستحيل بعد ذلك الى " قوى الهية " ...

و للملكة الخرافية حسب برجسون فضل على قدر كبير من الاهمية في حياة الجماعة الانسانية ، فهي التي تبعث على الاعتقاد بأن القوى الالهية أو الأرواح تباشر مهمة الرقابة الاجتماعية ، وبالتالي فهي تعمل على تأكيد السطوة الجماعية على حساب الذاتية الفردية ، ... و في المقابل فهي تشبع فكرة الخلود في النفس الانسانية ... و في الوقت نفسه تعمل على إنشاء الطقوس الالزامية ، كالصلاة ، و الاضاحي ، و الأعياد ... إرضاء للقوى الالهية الغيبية ، التي سبق لتلك الملكة أن صورتها على أنها خارقة للطبيعة ، و قاهرة للبشرية ...[2] .

و هذا الباحث يرى أنه من الصعب في هذا النوع من الأديان ، التفريق بين الطقوس الدينية ، و الطقوس السحرية ، .. فهما ظاهرتان تصدران عن مصدر واحد ، و تشتركان في غاية واحدة ، و هي اقناع الأفراد بضرورة الخضوع لرأى الجماعة وسطوتها تحقيقا للتكامل و التماسك الاجتماعيين[3] ...

أما النوع الثاني ، أو الديانة الدينامية أو النامية ، فان مصدرها حسبما يراه برجسون هو (الحدس ـ INTIUTION) و هي ملكة فوق مستوى

---

(١) ـ د . محمد عبد الله دراز ـ الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان دار القلم مرجع سابق ـ ص (140 ـ 141) .

(٢) ـ د . أحمد الخشاب الاجتماع الديني ـ مرجع سابق ـ ص (84 ـ 86) .

(٣) ـ د . نبيل السمالوطي ـ الدين و البناء الاجتماعي ـ الجزء الثاني ، مرجع سابق ، ص (43) .

العقل ، تبلغ اسمى درجاتها عند الصفوة المختارة من أهل التجربة الصوفية السامية ، التي تنزع نحو العمل لصالح الانسانية ، و تجعل مثلها الأعلى ، الكمال و المحبة ...

و دليل ذلك عند هذا الباحث ، أن الديانة ليست وليدة الضغط الاجتماعي أو الضرورة الاجتماعية ، كالديانة المغلقة و إنما هي نتيجة نزعة سامية ، و استجابة صادقة لنداء مذهب عقائدي ابداعي ...

فالدين النامي ، هو دين القديسين الذين تجيش في نفوسهم عاطفة المطابقة بين النشاط الانساني و المبدأ الحيوى ، و المطابقة هذه ، لا تتأتي الا بالتحرر من ربقة العوائق المادية ، و عدم التقيد بالأمور الطبيعية ، أو التهالك على المظاهر الدنيوية .. مما يجعل قلوبهم تتفتح لالهام الهي يستحوذ على جوهر وجودهم و يشيع في جوانحهم الطمأنينة و السكينة فيصبحون مصدر اشعاع لهذه الانفعالات الجياشة بحب الانسانية على اطلاقها ، وهو الطريق الذى تنتقل بواسطته الديانة المفتوحة الى روادها و معتنقيها ...

فالديانات النامية لا تنتشر عن طريق القوانين الصارمة والضرورات الاجتماعية القاهرة ، كما هو حال الديانات المغلقة ، وانما تسرى عن طريق النداءات التي يوجهها القديسون الى ضمائر الأفراد [١] ...

و مما تجدر الاشارة اليه بعد هذا العرض المختصر لأهم الأفكار التي قامت عليها هذه النظرية ، هو أنّ برجسون كان أكثر دقة وتواضعا من كثير من الباحثين الغربيين الذين حاولوا تفسير نشأة الدين ... و نقصد بذلك فصله بين أنواع الديانات ، بِغَضَ النظر عن مدى اصابته أو خطئه بعد ذلك .

فمعظم الباحثين الغربيين لم يعيروا أدنى اهتمام للاختلافات الجوهرية الموجودة بين الأديان ، ودرسوها على أنها شيئا واحدا ، متجاهلين بذلك حقيقة وجودها ، فظهروا و كأنهم يدرسون موضوعا صار الى عدم منذ قرون ...

(١) ـ د . أحمد الخشاب ـ الاجتماع الديني ـ مرجع سابق ـ ص 86 ـ 87) .

الا أن سلوك هذا المنهج لا يعني إنعدامُ الخطأ في هذه النظرية ، مع التأكيد على أننا تحاشينا ذكر أى من الانتقادات التي قدمت من طرف الباحثين الآخرين ، رغم جديتها في كثير من الأحيان ، محاولين بذلك تجنب التكرار قدر الامكان .

يرى برجسون أن الغريزة الاجتماعية هي الدافع الى إختراع الدين ، و ان الملكة الخرافية هي مصدره .. و ان نشأة الطقوس الدينية كانت وسيلة لا سترضاء القوى الغيبية القاهرة ، التي كانت أساسا من رسم المخيلة الانسانية ...

و في هذه التصورات كثير من الثغرات التي يمكن أن تنفذ منها سهام النقد ... فلو كان التجمع الانساني كائنا حيا يعي و يدرك ، الا أنه ضعيف لا يملك إزاء أفراده حولا و لا قوة ، فمن المعقول أن يلجأ الى تصوير قوى غيبية قاهرة تقف وراء هذا العالم ، كي يتمكن بذلك من الهيمنة على عقول أفراده ، و بالتالي إلزامهم على التماسك و التعاضد ، إبقاء على سلامة بنائه من التصدع والتفكك ... لأن الملكة التي يتحدث عنها برجسون يظهر و كأنها تعمل لصالح جهة أخرى غير الفرد الذى يملكها .

و بما أن المجتمع لم يكن في يوم ما كائنا مدركا ، فلصالح من إذن تعمل هذه الملكة ؟ ! ! و هل يُعقل أن يخادع الفرد ذاته ؟ ! ثم إذا كانت الملكة الخرافية التي تحدَث عنها برجسون ملكة غريزية كما يقول ، فلماذ ا جاءت الأديان مختلفة و لم تأتِ متشابهة ؟ ! .

فالغريزة كما نعلم ــ و كما هو معروف ــ تتحرك بوحي من برمجة سابقة و بالتالي تترجم دائما في أشكال واحدة متطابقة ، أو متقاربة ، في أسوأ الأحوال ، مهما أختلفت الجهات أو الأفراد الذين تصدر عنهم هذه الممارسات الغريزية ...

و قياسا على ذلك ، فان الصواب هو أن تكون الأديان الصادرة عن هذه الملكة متطابقة شكلا و مضمونا ، دون أن يترك فيها اختلاف الزمان و المكان أدنى أثر ...

و هنا رب قائل يقول : إن توفر هذه الغريزة في الانسان لا يعني

بالضرورة تماثلها لدى جميع البشر ، و يكفي حدها الأدنى لاثارة شعور القداسة في النفس الانسانية ، و هو الشعور الذى يولد في النهاية معاني التدين في التجمع البشري ...

و لمن قال هذا ، نقول : اذا كانت الملكة الغريزية هي مصدر الدين ولم تكن بالضرورة متشابهة ، أو متماثلة لدى جميع الناس في كل زمان و مكان ، ... فكيف تسنى لأصحاب هذه الملكات أن يجتمعوا على دين واحد ؟ و من هو ، أو من هم الذين استطاعوا تمرير خرافاتهم على الآخرين ؟ ! و كيف رضي الآخرون بهذا ؟

.. و أين ذهبوا بمنتجات ملكاتهم ؟ . هل ضحوا بها ؟ .. وحتى لو أن ذلك حدث كيف استطاعوا أن ينسجموا مع تصورات عقائدية هم على يقين كامل بأنها من انتاج غيرهم ، و أنها لا تتفق بحال مع تصوراتهم ..؟

ثم من أين ، و كيف جاء الاجماع على طقوس معينة في كل قبيلة أو مجتمع يدين بدين واحد ؟ .

إن قيل من التشابه الغريزى بين بني البشر قلنا فلماذا تختلف هذه الطقوس من دين الى آخر ؟

و ان قيل من التشابه الغريزى بين أبناء القبيلة الواحدة أو الجنس الواحد أو المجتمع الواحد ، قلنا فلماذا تختلف في القبيلة الواحدة التي تدين بدينين مختلفين .. ؟

و يمكن أن تثار أسئلة أخرى مشابهة حول جميع النقاط التي قال بها هذا الباحث بخصوص الديانة المغلقة ...

و خلاصة القول في الشق الأول من هذه النظرية ، أن نشأة الدين على الصورة التي يقول بها برجسون كان سيؤدي حتما الى صراع دموى بين أفراد كل تجمع انساني .. صراع يثيره التمسك أو التعصب للتصورات التي تفرزها ملكات الأفراد في مجال الاعتقاد ...

و هو صراع وجود أولا وجود ، اذ لا أحد يجامل فيما تمليه ملكته في مجال العقيدة ... حتى و ان كان في المجاملة صالح التجمع الانساني بأسره و التاريخ مثقل بالصراعات العقائدية ، وشاهد موثوق عليها ...

أما بخصوص الديانة الدينامية أو النامية ، فان مصدرها عند برجسون هو الحدس ، و الحدس حسب رأى هذا الباحث ، هو الآخر ملكة ... الا أنه ملكة تختلف عن الملكة الخرافية في الديانات المغلقة ... فان كانت الملكلت الخرافية تتحرك بفعل غريزى لتحقيق غرض غريزى كذلك ، فان الملكات الحدسية تنبعث بفضل الصفاء الروحي الذى يرتفع بصاحبه الى أعلى درجات النقاء ،، فوق أدناس الدنيا و أوحالها .

و الذى يحير القارىء في هذا المقام ، ان الحدس الذى يعني المعرفة المباشرة دون الحاجة الى مقدمات يعتبر من أعقد الأسرار التي لم يفسرها العلم بعد ،.. و السؤال الذى يقفز الى الذهـن هنا ، هو كيف نجوز لأنفسنا تفسير الأشياء المجهولة ، بالأسرار المغلوقة ، كما فعل برجسون ..؟

و ما هي التسمية الأحرى بهذا الفعل في النهاية ، أهي التفسير أو التدجيل ؟

ان المتأمل في الديانة الدينامية عند برجسون يجد بأنه يعترف لها بأصلِ الهي ، فاستلهام التعاليم و المبادىء الدينية لا يكون من فراغ ... بل من الله ، و هويعترف بذلك ، الا أنه ينكر الوحي ، ويقول بالحدس ، و القول بالحدس في هذا المقام ، يحمـل في طياته ، تحقيرا لله ، و تعظيما للانسان ....

فالله عاجز عن أن يختار من خلقه من يشاء لابلاغ رسالته ، وقدرة الانسان على الارتقاء بنفسه و التقرب من الله ، هي التي تعطي الله الفرصة لذلك ... فالحدس هو " شيفرة " اتصال الانسان مع الله في عزلته ...

هكذا نفهم معنى الحدس هنا و هكذا نظنه . . . و القبول به على هذه الصورة أعصى على العقول السليمة مرات و مرات .. من القبول بمعنى الوحي

و أخيرا .. رغم سعة خيال برجسون ، الا أنه فيما يبدو كان يعالج موضوع الديانات الدينامية ، و هو يضع على عينيه نظارات أفلاطونية ... فالله موجود ، الا أنه لا صلة له بهذا الوجود ، فهو خلق الكون و تخلى عنه ... هكذا تقول الفلسفة الأفلاطونية ... وهكذا يريد أن يقول برجسون .

و يظهر كذلك تأثره الكبير بالعقيدة اليهودية التي بنيت منذ القدم على مقولة العجز الالهي ... و اليهودية ـ كما هو معروف ـ هي الديانة التي أنتمى اليها هذا الباحث معظم سنين حياته ...

ـ المبحث الرابع ـ

النظـريـة التوتميـة

" التوتم " اسم مأخوذ من لغة الهنود الحمر في أمريـكا الشـمالية ، و هو اسم لم يتفق بعد على ضبطه و لا تحديد معناه ، فهو في المشهور (TOTEM)و لكن يكتب أيضا (TOTAM) أو (TOODAIM) أو (DODAIM) أو (ODODAIM). و يفسر تارة بمعنى موطـن العشـيرة و مسـتقرها ، و تـارة بمعنى العلامة أو الشعار ..(١)

ظهر مصطلح (توتم ـ TOTEM) لأول مرة في تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية ، على يد الكاتب الهندى (لونج ـ G. LONG) ضمن كتابة المنشور في لندن عام (1791) .

ثم كتب (فريزر) عن التوتمية كدين ، و كنظام اجتماعي ... و قد أكتشف (بالدوين سبنسر) و (جيلين) خلال أبحاثهما التي قاما بها في وسط استراليا عددا من القبائل التي تدين بالتوتمية عقيدة و عملا .

و قام مبشر ألماني يدعى (كارل سترولو) بنشر بعض المشاهدات و الملاحظات عن تلك القبائل .

و قد جاء دور دوركايم مبنيا علي هذه الجهود ، و مكملا لها في آن واحد . و هو قد اقتصر في أبحاثه على دراسة الدين البدائي للمجتمعات الاسترالية ... و هو ما عرف بالتوتمية .

فالتوتم هو اسم أو رمز ، أو شعار العشيرة الذى يعبر عن شخصيتها و يميزها عن غيرها ، و الاسم الذي تحمله العشيرة ، هو اسم لنوع معين من النبات أو الحيوان ، أو الجماد ، نوع تعتقد العشيرة أن لها به أوثق الصلات .. و هذا النوع هو التوتم .

و توتم العشيرة هو توتم كل فرد من أفرادها ، كما أن لكل عشيرة

---

(١) ـ د . محمد عبد الله دراز ـ الدين ـ مرجع سابق ـ هامش ص151) .

توتمها الخاص ، و هناك " توتم الاتحاد " الذي هو رمز تندرج تحته مختلف العشائر في ذلك المجتمع ، و هو العلم الذى يحملونه معهم في القتال و يدافعون عنه و يضعون على رؤوسهم بعضا من أجزائه أو أعضائه و يوجد الى جانب ذلك توتم خاص لكل فرد ، و هو يختلف عن توتم العشيرة و توتم الاتحاد ، ويرتبط الفرد البدائي بتوتمه الخاص بعلائق وثيقة تجعله يعتقد أنه يشاركه بخصائصه الكيفية و الذاتية ، فان كان توتمه هو النسر ، فهو يعتقد أنه يتميز بقوة الإبصار كالنسر ... و يعتقد كذلك أنه حاميه ، فلا يقتله ، و لا يذبحه و لا يتناول لحمه ...

و الفارق بين التواتم الفردية ، و التوتم الجمعي ، ان هذا الأخير وراثي ، أما تواتم الافراد فاختيارية ..

و هناك التوتم " الجنسي " الخاص بمجتمعات الرجال ، ومجتمعات النساء كلٌ على حدة ..

و التوتم ، كما يراه دوركايم ، ليس رمزاً لفرد ، أو حيوان في ذاته ، كالسلحفاة أو التمساح .. و انما هو معنى كلي يرمز الى النوع في عمومه و هو يرى أن التوتم رمز الى قوة غيبية دينية اسمى و أعلى من التوتم في حد ذاته ، يطلق عليه اسم (الموجود التوتمي) و التوتم الرمز ما هو الا صورة مرئيـة لهذا الموجود الأسمى ..[١]

و للموجود التوتمي أشكالا متعددة ، و صورا مختلفة أهمها وأقواها هي

---

(١) ـ د . قبارى محمد اسماعيل ـ علم الاجتماع و الفلسفة ـ الجزء الثالث (الاخلاق و الدين ـ دار المعرفة الجامعية ـ الاسكندرية ـ 1982 ـ ص (116 - 119) .

(المانا ـ[1] ـ MANA) . و المانا كما يصفها (كودر نجتون) قوة مختلفة تماما عن جميع القوى المادية ، و لها القدرة على تقمص كل الأشكال ...

و إذا كان التوتم هوالصورة الخارجية المحسوسة لما يسميه دوركايم بالموجود التوتمي ، فإن المانا هي الصورة العقلية الداخلية لهذا الموجود ، و هي أساس الدين التوتمي .[2]

و النظام التوتمي كما يراه دوركايم ، نظام عرفته الشعوب القديمة ، .. المصرية و الاثيوبية ، و العربية ، واليونانية ، والرومانية ، و الغاليه ،كما أنه لا يزال منتشرا في القبائل غير المتحضرة في أمريكا ، و استراليا ..

و هذه الأخيرة ـ فيما يعتقد دوركايم ـ هي أخصب مكان لدراسة هذه الظاهرة ، حيث أن سكانها أقل تطورا ، و أقرب الى الطبيعة الأولى من غيرهم ، فهو لذلك استمد منها الوقائع التي بنى عليها نظريته[3] ..

و قبل ذلك ، فان دوركايم يذهب الى أن " فكرة " الالوهية ليست عنصرا مميزا للحياة الدينية ، فهناك أديان الحادية ، كالبوذية و الجانية ، و

---

(١) ـ (المانا) هي القوة التي يعتقد " البدائي " أنها موجودة في كل الموجودات دون أن تختلط بأى منها ، فهي مستقلة عن كل الاشياء الجزئية التي تحل فيها ، و هي سابقة عليها في الوجود باقية بعدها ، يموت أفراد القبيلة و هذه القوة باقية حاضرة على الدوام ، حية لا تغير يعتريها و لا تبدّل ولا إختلاف ، فهو الاله الذى تتجه اليه العشيرة بالتقديس ، لكنه اله غير مشخص ، مما جعل " البدائي" يعجز عن فهم كنه هذه القوة في صورتها المجردة ، فحاول ادراكها في صورة حسية في الحيوان ، أو في النبات ، وربما في الجماد .. و هذه الصورة المادية تستحضر في ذهن " البدائي " هذه القوة المنبثة في الموجودات على اختلاف صورها و أشكالها ... و هي وحدها التي يتجه اليها بالعبادة التوتمية . / . د . أحمد الخشاب ـ الاجتماع الديني ـ مرجع سابق ـ ص (130) .

(٢) ـ د . قبارى محمد اسماعيل ـ الأخلاق و الدين ـ مرجع سابق ـ ص (120).

(٣) ـ د . محمد عبد الله دراز ـ الدين ـ مرجع سابق ـ ص (151 ـ 152) .

هويرى ان كل الظواهر الدينية تنقسم الى قسمين أساسيين ، هما العقائد و الطقوس ...

و العقائد هي الأساس الذي يحكم نظرة الانسان الى الأشياء ، فيميز من خلالها بين المقدس ، و غير المقدس ، و هذا التقسيم كما يرى دوركايم ، هو الصفة المميزة للفكر الديني مهما بلغت درجة سذاجته أو تعقده ..

فالعقائد الدينية هي أفكار أو تصورات تعبر عن طبيعة الأشياء المقدسة و غير المقدسة و ما بينهما من علاقات . أما الطقوس فهي نماذج الأفعال ، أو أشكال السلوك ، التي على الانسان أن يمارسها إزاء تلك الأشياء المقدسة ...[١]

و التوتمية ـ كما يراها ـ دوركايم ـ هي أقدم الأديان على الأطلاق ، كما أنها متصلة إتصالا وثيقا بكل تكوين اجتماعي تكون العشيرة هي أساسه ، بل ان العشيرة في أبسط صورها ، لا يمكن أن توجد بدون التوتم ، اذ أن أفراد العشيرة لا يكونون عشيرتهم على أساس المعاشرة ، أو السكنى ، أو صلة الدم ، وإنما على أساس أشتراكهم في الاسم و الرمز التوتمي ، و بمالهم من علاقات معينَة بمجموعة خاصة من الحيونات التي تتجسد فيها المعاني التوتمية ..

كما أن كُلَ فرد من أفراد العشيرة يعتبر نفسه مقدسا ، لأنه كما يعتقد يشارك في طبيعة النوع التوتمي الذى يحمل اسمه . فالاسم عند الرجل " البدائي " ليس كلمة فحسب ، و إنما هو جزء جوهري من طبيعة الكائن الذي يطلق عليه ، فكل فرد من أفراد العشيرة يعتبر الحيوان

---

(١) ـ د. قبارى محمد اسماعيل ـ الأخلاق و الدين ـ مرجع سابق ـ ص (110 ـ 111) و دوركايم يرى أن السحر كالدين يحتوى على معتقدات و طقوس و له مظاهر الدين المختلفة ، من قرابين و صلوات وطقوس . لهذا فهو يرى أن السحر إمتزج بالدين إمتزاجًا شديدًا ـ أنظر نفس المرجع السابق ـ ص (111) .

الذى يشير اليه التوتم من طبيعته ، وهو من طبيعة الحيوان نفسه ، و معنى هذا أن القبائل التوتمية حاولت أن تقيم علاقة بين الانسان والحيوان و قد إختلفت أساطير القبائل " البدائية " في ذلك إختلافا كبيرا ..

فهناك قبائل كانت تعتقد أن أسلافها الأوائل كانوا يستطيعون التحول الى حيوانات ، و يفهم من هذا أن الانسان في نظرهم أسبق في الوجود من غيره من الكائنات . بينما ذهبت الجماعات الاسترالية الى أن الانسانية الأولى نشأت عن حيوانات غريبة انحدر منها الانسان ...[١] في حين أن القبائل التوتمية في أمريكا الشمالية ترى أنه تعاقب على التوتم الحيواني سلسلة من التغيرات الطبيعية ، صيرته آخر الأمر إنسانا .[٢]

و في نظر دوركايم ، فان هذه التصورات العقائدية ، و ما يتخللها من طقوس تعبدية ، تعد أول ديانة إنسانية ، و ان هذه الديانة المسماة بـ (التوتمية) ما هي في حقيقة الأمر إلا عبادة المجتمع لنفسه ، دون أن يشعر الأفراد بذلك ...

---

(١) ــ من أمثلة الاساطير التي شاعت بهذا الصدد ، أسطورة الانسان السلحفاة حيث يعتقد أفراد قبائل (الاريكواز) أن أجدادهم يرجعون الى هذا التوتم ، و تذكر الأسطورة أن مجموعة من السلاحف كانت تعيش في بحيرة ، ثم حدث تطور طبيعي أدى الى جفاف تلك البحيرة ، مما دفع بتلك السلاحف الى البحث عن الغذاء و الانتقال في سبيل ذلك من مكان الى مكان ... فرأت تسهيلا للامر ، أن تتخفف من غطائها ، و تم لها ما أرادت ، و لكن بعد جهد عظيم ، ثم تتابعت عمليات التغير في الحياة البيولوجية للسلحفاة ، الى أن وصلت الى الصورة التي عليها الانسان ومن هنا أصبحت السلحفاة انسانا ، و هذا الانسان هو الجد الأول للعشيرة ... و هناك أساطير أخرى تنكر ، نشأت الانسان عن الحيوان ، و تقرر أن سلف الانسان كان انسانا ، و لكن لاسباب مختلفة إنتهى به الأمر الى أن يعيش زمنا ما وسط نوع من أنواع الحيوانات التي ينتمي اليها توتمه ، فاكتسب منها جميع خصائص النوع التوتمي ، و من هنا جاء التفكير في الرمز التوتمي الذي يذكر القبيلة بأصحاب أسلافها ...» ، د. أحمد الخشاب ـ الاجتماع الديني ـ مرجع سابق ـ ص (125 ـ 126) .

(٢) ــ د . أحمد الخشاب ـ الاجتماع الديني ـ مرجع السابق ـ ص 124) .

و تفسير هذه المقولة .. أن تلك الأمم في تعظيمها لألقابها ، تعظم في الوقت نفسه مسمى تلك الألقاب ، و لما كان الاسم مشتركا بين الحيوان و بين الجد الأعلى و بين أفراد العشيرة ، وكانت الصلة بين هذه المعاني الثلاثة في نظرها صلة تجانس تام ، ترجعها الى جوهر واحد ، شمل التعظيم ثلاثتها ، لكن الحظ الأكبر من التعظيم يدخرونه لهذا الاسم المشترك ، أو لتلك الصورة الجامعة ، و هي الرسم أو الوشم ، حتى إنهم نسبوا الى هذه الصورة (التوتمية) خصائص عجيبة ، فزعموا أن الذى يحملها ينصر في الحرب على أعدائه ، و يوفق في تسديد السهم الى رميته ، و أن وضعها على القروح يسرع في التئامها ، الى غير ذلك ...

الا أن هذا التعظيم في العادة لا يصل الى درجة العبادة ، و لا يوحي بفكرة التدين و التقديس و التأليه ، و لذلك يقضون جل أوقاتهم في حياة فاترة ، كل يسعى لقوته ، منعزلا في الجبل للاحتطاب ، أو على شاطىء البركة للصيد ، و ليس لهم مظهر من مظاهر التدين في هذه الأحوال العادية ، سوى التورع عن بعض المحظورات .

و يأخذ التدين حقيقته و مظهره التام عندهم في مواسم خاصة ، تقام فيها الحفلات المرحة الصاخبة ، التي يطلقون فيها العنان لحركاتهم العنيفة ، و صيحاتهم المنكرة ، على ايقاع الطبول ، و لحن المزامير ، و قد ركزوا السارية التي تحمل علم العشيرة (أو توتمها) في سرة الحفل ، فينتهي بهم هذا الحماس الصاخب الى الذهول والهذيان ، بل يقضي بهم الى إنتهاك سياج المحرمات الجنسية ، التي يحترمونها أشد الاحترام في العادة ، و ربما نسبوا هذا التطور العجيب الى حضور سر الأجداد فيهم عن طريق هذا الرمز ، و عبادتهم للروح التي يرمز اليها ، ظنا منهم أنها هي التي أحدثت فيهم هذا التحول الروحي الغريب ...

و هنا يأتي دور دوركايم ، ليكشف الغشاوة عن أعين هؤلاء " البدائيين " و ينبههم الى ما حدث من تحول شعورهم عن منبعه وهدفه الحقيقيين ، و أنهم اذا كانوا يتوجهون بعبادتهم الى مصدر هذا الأثر الجديد ، فليعلموا أنه ليس هو النصب ، و لا ما يرمز اليه النصب ، و انما هو هذا الاجتماع

الثائر نفسه ، فان من طبيعة هذه الاجتماعات أن تنسلخ النفوس فيها عن مشخصاتها الفردية ، وتنصهر كلها في شخصية واحدة هي شخصية الجماعة ، و هكذا يكون الاجتماع هو مبدأ التدين و غايته و تكون الجماعة تعبد نفسها من حيث لا تشعر(١)

هذه أهم المقدمات التي إستندت اليها النظرية التوتمية ، و كذلك أهم النتائج و المقولات التي إنتهت اليها ..

و مجال النقد فيها واسع عريض ، تحتمله من ألفها الى يائها ... و ما من باحث ــ فيما نعلم ــ طرق هذا الموضوع ، الا و أشبع هذه النظرية نقدا و تفنيدا ...

و لعل من أشهر هؤلاء الأب (شميدت ــ SHMIDT) ، وشميدت هذا لم يعتمد في نقده على دراسات غيره من العلماء ، و إنما ارتحل بنفسه الى موطن التوتمية ، و أعتمد على معلومات واسعة في تاريخ الأديان ، و حلل كتاب دوركايم الخاص بالأشكال الأولى للحياة الدينية ، و نقده ... و انتهى الى أن المذهب التوتمي لا ينهض أمام مقررات الانثوربولوجيين ، فعلى ضوء بحوث هؤلاء العلماء ، لا يمكن لأحد أن يقول بأن المجتمعات المتخلفة تمثل الانسانية في طفولتها المبكرة ، و بالتالي فليس هناك ما يبرر بأن التوتمية هي أقدم ديانة عرفتها البشرية ، .أو أنها مصدر الأديان المعروفة في المجتمعات المتأخرة ، و كل ما يمكن أن يقال في هذا المجال ــ حسبما يرى شميدت ــ آن التوتمية نظام اجتماعي ، عرفته بعض المجتمعات في فترة من فترات حياتها(٢) .

و يؤكد (باستيد) أن التوتم ليس الا موضعا للاحترام العائلي الذى يشبه احترام الابن لأبيه ... و الشواهد ــ كما يقول هذا الباحث ــ تؤكد لا دينيَة التوتمية ، و يقرر في النهاية أن صلتها بالدين منعدمة ، و

---

(١) ــ د . محمد عبد الله دراز ــ الدين ــ مرجع سابق ــ ص (152 ــ 153).

(٢) ــ د. أحمد الخشاب ــ الاجتماع الديني ــ مرجع سابق ــ ص (131 ــ 123) .

أنها لا تعدو كونها نظاما قبليا ."[1]

و قد كتب (فريزر ـ FRAZER) عام 1887 كتابا صغيرا عن التوتمية، ثم كتب بعد ذلك كتابا آخر عن أصل التوتمية ، وجمع في تلك الكتابات كمية هائلة من المعلومات و التفصيلات الجزئية عن الظاهرة التوتمية ، سعيا منه للكشف عن أصل هذه الظاهرة ..

وقد إفترض فريزر لذلك فروضا ثلاثة و جعلها موضعا للاختبار طوال حياته العملية ، و هو كان قد خلص من دراسته المبكرة الى أن التوتمية ظاهرة نصفها ديني و نصفها الأخر اجتماعي ، الا أنه بعد أن عكف على دراسة أشكالها الدينية و الاجتماعية انتهى في اخر حياته ، الى أن التوتمية ظاهرة (لا دينية) .. و أنها ذات أصول سحرية ، مما جعله يذهب الى القول بأن السحر سابق على الدين ، و مرحلة ممهدة له ...[2]

و خطأ آخر وقع فيه دوركايم ، و هو انطلاقه من أن قبائل استراليا الوسطى هي أقدم الأجناس البشرية في حين أن تاريخ الأجناس أثبت أخيرا أن هناك صورا أخرى للأجناس البشرية ، قد سبقت قبائل استراليا الوسطى ، كما ثبت أن قبائل (الأرنتا ـ ARUNTA) ، التي كانت أساس الدراسة التي أجراها دوركايم لم تكن هي أقدم جماعة انسانية كما كان يتصور، و لكنها تمثل الطور السادس للعقلية الاسترالية ، حيث تأكد بالدليل أن قبائل استراليا الجنوبية الشرقية ، هي أقدم قبائل استراليا على الاطلاق .

أما القبائل الوسطى ، و خاصة « الأرنتا » فهي أحدثها وأكثرها تقدما ...

و تبين أن التوتمية لا وجود لها البتة في القبائل الجنوبية الشرقية ، بل وجد أن هذه القبائل تعتقد بإله أوحد ، له صفات الاله العظيم ، و هي

---

(١) ـ د . قبارى اسماعيل ـ .. الاخلاق و الدين ـ مرجع سابق ـ ص (160 ـ 161) .

(٢) ـ د . قبارى اسماعيل ـ المرجع السابق ـ ص (159 ـ 160) .

عندهم عقيدة واضحة محددة ، و مستقلة تماما عن الصورة التوتمية ، و من هنا تتهدم وجهة النظر الدوركايمية عن الصورة الاولية للحياة الدينية ."[1]

و قد ذهب (ليفي استراوس ـ LEEVI. STRAUSS)الى أن ملازمة التوتمية للدين ، و إرتباطها به هو الذى أضفى عليها صفاته ، فالتوتمية ليست من الدين ، بدليل أنها إنفصلت تماما عن الأديان المتحضرة خشية أن تقوم هذه الأديان باحتوائها[2]...

و لعل أعجب مافي الأمر أن دوركايم نفسه يعترف بأن هناك عددا من القبائل الاسترالية تؤمن بإله واحد ، و تعتقد أنه كائن أزلي أبدي تسير الشمس و القمر و النجوم بأمره ، و أنه هو الذى يثير البرق ، و يرسل الصواعق ، .. و هو الذى خلق الحيوان والنبات ، و صنع الأنسان من الطين و نفخ فيه الروح ، و هو الذى علم الانسان البيان ، و ألهمه الصناعات ، و شرع له العبادات ، وهو الذى يقضي في الناس بعد الموت فيميز بين المحسن والمسيء ... ثم إن دوركايم يؤكد في رده على تايلور أن العقائد ليست مقتبسة عن الأوربيين كما ظن هذا الأخير ، بل هي قديمة في هذه القبائل ، و متأصلة فيها قبل أن تنكشف " للمبشرين " الأوربيين .. و هم يعبرون عن هذه العقائد بعبادات حقيقية ، ترفع فيها الأيدى الى السماء بالدعاء[3] .

يعترف دوركايم بوجود هذه الحقيقة ، و يدافع عنها في وجه منتقديها و يجتهد في تأكيد وجودها ...

الا أنه عند استنباط نظريته في الألوهية ، يضرب الذكر صفحا عن هذه الصورة الدينية الحقيقية ، ثم يَعْمَدَ الى ضرب من اللهو الخليع تأتيه بعض القبائل ـ التي ثبت أنها أحدث عهدا من القبائل الموحدة ـ في حفلات

(١) ـ د . قبارى محمد اسماعيل ـ الأخلاق و الدين ـ مرجع سابق ـ ص ـ (161 ـ 162) .

(٢) ـ د . محمد أحمد بيومي ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص (267) .

(٣) ـ د . محمد عبد الله دراز ـ الديـن ـ مرجع سـابق ـ ص (159).

تضم كل شيء الا الدين و العبادة ، ويترخص فيها بارتكاب أعمال تنافي قواعد الأخلاق المقررة والمتبعة عندهم بانتظام ، يعمد الى هذه الحفلات الماجنة ، فيرسم لنا منها لوحة بارزة يعرضها علينا قائلا : إذا أردتم معنى الدين فها هنا منبعه و مظهره ، بل إنه يؤكد « أنه لا تكاد تلتمس الظاهرة الدينية فيما سواه »(١) و كأنه يقول للناس بعبارة أخرى إن كل حمة جنونية يثيرها مجتمع صاخب ، و كل سورة إباحيّة تنطلق فيها الوجدانيات من عقالها بعدوى المحاكاة ، أيا كان هدفها وباعثها ، فهي نوع من الدين .. و لوكان سيل الشهوات الجامحة يجترف كل ضابط من ضوابط العقول ..... و يقتحم كل معقل من معاقل الاداب المحترمة في الشعب نفسه ...(٢)

أما الأخطاء المنهجية التي وقع فيها صاحب النظرية ، فكثيرة وعديدة ، نلخص بعضا منها في النقاط الثلاث التالية :ـ

الأولى :ـ

ان دوركايم لم ينزل الى ميدان الدراسة ، و لم يتصل بأصحاب العقائد التوتمية بصورة مباشرة ... و انما إستند فيما توصل اليه الى أقوال " المبشـــرين " و كتـابات الرحالة ، و ملاحظـات بعض الهواة ... و هي معلومات كثيرا ما تتناقض من باحث الى باحث ، ومن رحالة الي آخر ... و مثال على ذلك ، أن (مان ـ MAN) درس جزر (الأندمان) دراسة ميدانية ، و ألف في ذلك كتابا عام (1882) ، ثم قام (رادكلف برمان البريطاني باعادة دراسة نفس الجزر ، بعد أن عاش عليها مدة عامين ، وكانت حصيلة ذلك كتابه (سكان الاندمان) الذى فند فيه معظم ما جاء

(١) ـ د . محمد دراز ـ الدين ـ مرجع سابق ـ ص (159) .
(٢) ـ د . محمــد عبد الله دراز ـ المرجع الســابق ـ ص (156 ـ157) .

في كتاب (مان) السابق [1].

الثانية :ـ

أن دوركايم اقتصر على دراسة صورة واحدة من صور التوتمية ، دون أن يقارنها بمختلف الأشكال التوتمية المنتشرة في بعض بقاع المعمورة ، على الرغم من أن المنهج المقارن هو حجر الزاوية في علم الاجتماع و الانثروبولوجيا الاجتماعية ، فلماذا هذا الاقتصار على التوتمية الاسترالية وحدها ...[2]؟

الثالثة والأخيرة :ـ

ان دوركايم لم يميز بين ما هو ديني ، و ما هو اجتماعي و لم يضع خطا فاصلا بين العنصر الفردى في الدين والعنصر الجماعي ، حيث أننا نجد أن الشعور الديني هو بالضرورة شعور ذاتي جوهري ، قبل أن يكون شعورا جماعيا ... و من المؤسف كما يقول (روجيه باستيد) أن دور كايم و اتباعه من علماء النشرة السنوية لعلم الاجتماع ، قد أغفلوا تلك الجوانب الذاتية الفردية في الدين و مرد ذلك الى كون هذه المدرسة تنكر الظاهرة الفردية أصلا ..[3] .

---

(١) ــ د . محمد عبد الله دراز ـ المرجع الســـابق ـ ص (156 ـ 157) .

(٢) ــ د . نبيل توفيق الســمالوطي ـ الدين و البناء الاجتماعي ـ مرجع سابق ص (91) .

(٣) ــ د . قبارى محمد اسماعيل ـ المرجع السابق ـ ص (157).

ـ المبحث الخامس ـ

أسس النظريات الوضعية

تشترك النظريات الوضعية السابقة في فرضيات متطابقة ، تشكل القاسم المشترك لها جميعًا ، رغم ما بينها من إختلافات في التفسيرات التفصيلية ..

كما تشكل هذه الفرضيات في الوقت نفسه ، الأسس الرئيسة التي إستندت اليها كل واحدة من هذه النظريات ...

وحتى تتضح الصورة أكثر ، نوجز في السطور التالية أهم ثلاث فرضيات انطلقت منها هذه النظريات ، و هي :ـ

ـ الفرضية الأولى :ـ

تقوم على اعتبار أن الانسان الأول ، كائن متخلف العقل ، همجي السلوك ، ساذج النظرة .... لا يكاد يختلف في قدراته العلمية ، و سلوكاته اليومية ، ... عن قدرات و سلوكات طفل في الرابعة أو الخامسة من عمره ...

و هو تصور مريض ، أساسه الاعتقاد بأن الانسان قد إنحدر عن أصول حيوانية و أصحاب هذا الاتجاه يعتقدون أنه كلما أوغل الانسان في أعماق التاريخ ، كلما كان أقرب من أصوله غير الانسانية ، الى أن يبلغ المرحلة أو المراحل الأولى من مراحل الحياة الانسانية ، حيث تغلب على أفرادها صفات لا انسانية ، و هي الصفات التي تعكس طبيعة الأصل الانساني ، كالوحشية ، والهمجية ، و السذاجة ، و السطحية ...

هكذا يفسرون الوجود الانساني ..

و هوتفسير لا يقوم عليه دليل من التاريخ أو العلم ، بل ان العلم المخبري نسف أخيرا هذه التصورات من قواعدها ، و استبدل أمثال هذه الأوهام عن أصل الانسان و منشأ الحياة ، بحقائق مخبرية صحيحة ، ..

وتأكد على أيدي الأطباء الباحثين ، أن أصل الانسان هو الانسان ، و ان (الجينات الوراثية) الموجودة في كل جسم انساني ، ــ و في كل كائن حيواني ــ تمنع بصورة مطلقة ، امكانية حدوث أدنى تطور أو تغير على بنيته الداخلية أو الخارجية ...

أعني أن تركيبة العقل الانساني لم تتطور ، و كذلك الشكل العضوي للانسان ، لأن قابلية التطور أصلا ، معدومة في كل منهما ، في العقل و في الجسم ...

إذن ما الذى تطور في الانسان ؟ .

ان الذى تطور في الانسان هو المعرفة فحسب ، و الفارق بين تطور العقل ، و تطور المعرفة ، كبير .. و كبير جدا فتطور المعرفة يعني تراكمها ، و تراكم المعرفة يدفع في النهاية الى تقدم الانسان ...

فتقدم الانسانية في القرن العشرين ، مركب على تراكم المعرفة البشرية عبر التاريخ ، و لوأننا طمسنا الثروة المعرفيّة التي ورثها جيلنا عن الأجيال السابقة ، فإننا حتما سنطمس معها هذه الحضارة العملاقة ، و سيرجع انسان هذا القرن الى مهد حضارى آخر ، يلتقط فيه الثمار ، و يتصيّدَ فيه الحيوان ، .. و لن يكون حظه في تحصيل المعرفة بأفضل من حظ أجداده و آبائه ...

و هذا ما يجعلنا نقول بأن الحضارة التي يشيدها جيل من الأجيال ، هي في الحقيقة من ابداع جميع الأجيال الانسانية السابقة ، و ليست من ابداع جيل بمفرده ...

فالحضارة الانسانية بناء عمودى ، تتجمع فيه جميع الاسهامات الانسانية ..

فمنذ أن خلق الانسان ، و حتى هذا الزمان ، و الأجيال كلها تسهم في هذا البناء ، جيل بعد جيل ، الى إنتهى الينا في صورة حضارة عظيمة شامخة ...

أما الفرضية الثانية :ـ

فتقوم على اعتبار أن الدين ظاهرة اجتماعية ، أو صناعة انسانية . و مرد هذا الزعم يرجع الى عدم ايمان واضعي هذه النظريات بوجود خالق لهذا العالم ، و ان سلم بعضهم بوجود هذا الخالق ، فهم لا يعتقدون بوجود صلة بينه و بين الانسان ، .. فهو خالق تنازل عن صلاحيّاته في تدبير الخلق .. كما تقول الفلسفة اليونانية ....

لهذا فهم لم يراعوا على الاطلاق شيئا اسمه المصدر في التفريق بين الأديان ، و انما إعتبروها جميعا من صناعة الانسان ، و من افرازات المجتمع ...

و سنناقش هذه المسألة ، عند عرض التفسير الذى استبقيناه بخصوص مصدر الدين في الصفحات القادمة ، بحول الله ...

أما الفرضية الثالثة و الأخيرة :ـ

فتقوم على أساس أن القبائل المتخلفة ، و التي مازالت تعيش الى الآن ، في بقاع مختلفة من الأرض ، كاستراليا ، و أفريقيا الوسطى ، و أمريكا الشمالية ... تمثل الانسانية في مرحلتها الأولى تمثيلا صادقا ... و ان ما يوجد لدى هذه القبائل اليوم من عقائد وتصورات ، وما يصدر عن أفرادها من سلوكات و ممارسات ... يعبر بدقة عما كان عليه حال الانسانية في مراحلها الأولى ...

ولسنا بحاجة الى إعادة التأكيد على سذاجة هذه المزاعم ، والاستشهاد بنتائج الدراسات الانثروبولوجية ، و المقدمات البديهية ... و حسبنا ما ذكرناه في صفحات سابقة بهذا الصدد ..

و مما هو جدير بالذكر ، أن غالبية هذه الفرضيات و أمثالها ، كانت خلال فترات ظهور هذه النظريات ، بمثابة المسلمات البديهية لدى العقلية الغربية عموما ، بما فيها أصحاب النظريات أنفسهم ...

و قد استمرت بعض هذه التصورات بعض الوقت ، و الناس في الغرب

بين مصدق لها و مكذب ... الى أن أثبتت الأبحاث ، الأكثر علميّة ، و الأعمق تخصصا و الأنزه هدفا ، خطأها و سذاجتها في آن واحد ...

و بثبوت خطأ الفروض ، بطلت النظريات ، وفقدت مصداقيتها ...

وبقي أن ندرك أن الدارسين لهذه النظريات اليوم - في الشرق و في الغرب - لا يفعلون ذلك قناعة منهم بنتائجها ، و لكن سعيًا وراء الاستفادة من مناهجها ...

ب ـ التفسير الاسلامي ...

قبل عرض رأى الاسلام في موضوع نشأة الدين ، رأينا أن نقدم لذلك بعرض صورة موجزة عن أصل الانسان في الاسلام ، لما إرتأيناه بين الموضوعين من صلة وثيقة ، بل إننا لا نكاد نفهم كيفية نشؤ الدين ، ان كنا جاهلين بكيفية وجود الانسان

فالدين في هيكله ما هو الا مجموعة عقائد حول الله و الكون و الانسان و لن يفهم ما لم تتضح حقيقة هذه الثوابت ...

لهذا فقد رأينا أن يتضمن هذا القسم من الفصل الثاني مبحثين إثنين :

المبحث الأول : أصل الانسان في الاسلام .
المبحث الثاني : ثوابت التصور الاسلامي حول بداية الدين ..

ـ المبحث الأول ـ

أصل الانسان في الاسلام

يقرر الله سبحانه و تعالى في آيات عديدة من القرآن الكريم ، أن أصل البشر المنتشرين فوق هذه البسيطة ، على إختلاف أشكالهم و أجناسهم ، و أخلاقهم و طبائعهم ، و تقدمهم وتأخرهم .. انما يرجع الى الانسان نفسه ، الانسان الذى خلقه الله سبحانه من حمأ مسنون ، ليجعله بعد ذلك خليـفة له في أرضه ..

ومما هو ثابت في القرآن الكريم ، ان الله سبحانه و تعالى لم يخلق الانسان عبثا ، و انما خلقه لأداء مهمة ، و تأدية رسالة : «و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون ... »[١]

أما الآيات التي تحدثت عن خلق الانسان ، فكثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال :ـ

قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ، و الجان خلقناه من قبل من نار السموم ، و إذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون ، فاذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين »[٢]

و قوله سبحانه : « .. اذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طيـن فاذا سويـته و نفـخت فيه من روحي فقـعوا له ساجدين ... »[٣]

---

(١) ـ سورة البقرة : اية (30) .
(٢) ـ سورة الحجر : آية (26) .
(٣) ـ سورة (ص) : آية (71 ـ 72) .

و قوله سبحانه : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة و خلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، و أتقوا الله الذى تساءلون به و الأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ... » (١)

و قوله سبحانه : «هو الذى خلقكم من نفس واحدة و جعل منها زوجها ليسكن اليها ... » (٢)

وقوله سبحانه : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير ... » (٣)

و قوله سبحانه : « .. لقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين » (٤)

و قوله سبحانه : « منها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة أخرى .. » (٥)

أما الأحاديث النبوية التي أشارت الى ذلك ، فنذكر منها ، ما رواه الامام أحمد ... عن أبي موسى .. أن النبي (ص) قال : «ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض و الأحمر و الاسود وبين ذلك ، و الخبيث و الطيب و السهل و الحزن و بين ذلك .. (٦)

هذه هي قصة الوجود الانساني كما يقررها الاسلام ، فالله سبحانه خلق آدم من طين الأرض ، ثم نفخ فيه من روحه ، فأصبح إنسانا نابضا بالحياة ...

---

(١) ـ سورة النساء : آية (1) .
(٢) ـ سورة الاعراف آية (189) .
(٣) ـ سورة الحجرات : آية (13) .
(٤) ـ سورة الأعراف : آية (11) .
(٥) ـ سورة طه : آية (55) .
(٦) ـ قصص الانبياء ـ للامام أبي الفداء اسماعيل بن كثير ـ (701 ـ 774هـ) الشهاب ـ باتنة ـ الجزائر ـ 1988 ـ ص (35) .

و هذا الذى يقرره الاسلام قبل أربعة عشر قرنا ... كان جزءا أصيلا من عقيدة الانسان في بداية منشأه ، الا أن تطاول الأمد أنساه هذه الحقيقة أو كاد ، فجاء القرآن يؤكد عليها من جديد ، و يقرع بها مسامع الجاهلين لها ، و الضالين عنها .. و تعد الأديان السماوية الثلاثة ، اليهودية (*)، و النصرانية ، و الاسلام من أكثر الأديان دقة في تصوير البداية الانسانية ، على ما بينها من إختلافات طفيفة في هذه المسألة .

و نأتي بعد هذا الى العقل الانساني ، و هو موضوع على درجة كبيرة من الأهمية حيث أن الاسلام يخالف جميع النظريات القائلة بتطور العقل

(*) ــ جاء في التوارة ــ الاصحاح الثاني من سفر التكوين ــ بخصوص خلق آدم ــ الآتي : ــ « .. و جبل الرب الاله آدم ترابا من الأرض و نفخ في انفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية ، و غرس الرب الاله جنة في عدن شرقا ووضع هناك آدم الذى جبله و أنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر و جيدة للأكل و شجرة الحياة في وسط الجنة و شجرة معرفة الخير و الشر ، و كان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة و من هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس ، اسم الواحد فيشون و هو المحيط بجميع أراض الحويلة حيث الذهب ، و ذهب تلك الأرض جيد هناك المقل و حجر الجزع ، واسم النهر الثاني جيحون و هو المحيط بجميع أرض كوش ، واسم النهر الثالث حداقل و هوالجارى شرقي آشور ، و النهر الرابع الفرات ، أخذ الرب الاله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها و يحفظها ، و أوصى الرب الاله آدم قائلا من جميع شجرة الجنة أكلا تأكل ، و أما شجرة معرفة الخير و الشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت ، وقال الرب الاله ليس جيدا أن يكون آدم وحده فاصنع له معينا نظيره ، و جبل الرب الاله من الأرض كل حيوانات البرية و كل طيور السماء ، فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذا نفس حية فهو اسمها ، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم و طيور السماء و جميع حيوانات البرية و أما لنفسه فلم يجد معينا نظيره ، فأوقع الرب الاله سباتا عل آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملاء مكانها لحما ، و بنى الرب الاله الضلع التي اخذها من آدم امرأة وأحضرها الى آدم فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي و لحم من لحمي هذه تدعي امرأة لأنها من امرىء أخذت ، لذلك يترك الرجل أباه و أمه و يلتصق بامرأته و يكونان جسدا واحدا ، و كانا كلاهما عريانين آدم و امرأته وهما لا يخجلان ..» أ . هـ .

الانساني[1] ، سواء منها القائلة بالتطور على مراحل ، أو تلك القائلة بتطور الفجأة أو الطفرة ..

حيث نجد في القرآن الكريم آيات ذات دلالات قاطعة في الموضوع ، كل منها يؤكد على أن الانسان قد زود منذ أن خلق ، بعقل كامل متميز و ان كمال عقله هذا ، كان هو سر سموه فوق كثير من خلق الله سبحانه و يتضح هذا من خلال قوله تعالى : «و علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم انبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض و أعلم ما تبدن و ما كنتم تكتمون .. »[2]

و مسألة كمال العقل الانساني ثابتة في الاسلام بديهيا ، حيث يؤكد القرآن الكريم على أن الانسان قد كلف منذ أن خلق ، و أن الله سبحانه سيحاسبه على هذا التكليف في النهاية ..

و في مواضع أخرى يؤكد لنا أن مناط التكليف في الانسان هو العقل في الدرجة الأولى ، و هذا يعني أن الانسان إمتلك القدرات العقلية ، و المؤهلات المعرفية اللازمة ، منذ أن كلف ، أى منذ أن خلق ...

و نحن لا نشك في أن من بديهيات ما تعلمه آدم عن ربه ، ان الله سبحانه هو خالق السموات و الأرض و ما فيها ، و أنه هو خالقه و خالق ذريته من بعده و رازقهم ، و انه هو مولاه الذى تجب طاعته و عبادته ، و انه هو الذى سيعيده و ذريته اليه ليحاسبهم في النهاية على ما قدموا ، .. كما لا بد أن يكون عالما أيضا أنه مأمور بتوريت علم هذه الحقائق الى

---

(١) ـ هناك فرق بين القول بتطور العقل ، و القول بتطور المعرفة ، ونحن نؤمن بتطور المعرفة الانسانية و لا نؤمن بتطور العقل الانساني ، وقد ناقشنا هذه المسألة بشيء من التفصيل في الصفحات الاخيرة من القسم الأول من هذا الفصل ، فليرجع اليها من شاء ..

(٢) ـ سورة البقرة : الأيات من (31 ـ 33) .

ذريته ... مما يجعل هذه العقيدة ميراث الانسانية عن الانسان الأول[1] بغض النظر عن مدى احترام تلك الأجيال لهذه الأمانة ، ووفائها لهذا الميراث ... فتلك مسألة أخرى ، سنناقشها في المبحث التالي بحول الله .

و مما يذكره القرآن كذلك بخصوص خلق الانسان ، أن الله سبحانه و تعالى ، قد أسكن آدم بعد أن أتم خلقه الجنة ، و الجنة المقصودة كما يفهم من سياق الايات القرانية مكان آخر غير الأرض ، و قد اختلف علماء التفسير في تحديدها ، أهي جنة الآخرة ، أم جنة أخرى غيرها .... و الذى يهمنا هنا ، أن مقام آدم في الجنة لم يطل ، و أنه أخرج[2] منها

(١) ـ د . محمد عبد الله دراز ـ الدين ـ مرجع سابق ـ ص (164 ـ 165) .

(٢) ـ وردت قصة اخراج أدم من الجنة في التوراة ـ سفر التكوين ـ الاصحاح الثالث ـ كالتالي :

« و كانت الحية أحيل حيوانات البرية التي عملها الرب الاله فقالت للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ، فقالت المرأة للحية من ثمر الجنة نأكل ، و أما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منها لئلا تموتا ، فقالت الحية للمرأة ان تموتا ، بل الله عالم يوم تأكلان منه تنتفخ أعينكما و تكونان كالله عارفين الخير و الشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للاكل و انها بهيجة اللون و أن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها و أعطت رجلها أيضا معها ، فأكل فانتفخت أعينهما و علما أنهما عرايان فخاطا من أوراق تين وصنع لانفسهما مآزر وسمعا صوت الرب الاله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ أدم و امرأته من وجه الرب الاله في وسط شجر الجنة ، فنادى الرب الاله آدم و قال له أين أنت ، فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لاني عريان فاختبأت ، قال من أعلمك انك عريان ، هل أكلت من الشجرة التي وصيتك ألا تأكل منها ، فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت ، فقال الرب الاه للمرأة ما هذا الذي فعلت فقالت المرأة : الحية أغرتني فأكلت ، فقال الرب الاه للحية لانك فعلت هذا ملعونة من جميع البهائم ، و من جميع وحوش البرية على بطنك تسعين ، و ترابا تأكلين كل أيام حياتك ، واضع عداوة لينك و بين المرأة و بين نسلك و نسلها ، هو يسحق رأسك و أنت تسحقيت عقبه، و قال للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حياتك ، بالوجع تلدين أولادا و الى رجاك يكون

../..

الى الأرض بأمر من الله سبحانه .

ففي سورة البقرة : « و قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة و كلا منها رغدا حيث شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كان فيه ، و قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو لكم في الأرض مستقر و متاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم [١] .

وفي سورة الأعراف : « .. ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سؤاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الجشرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سؤاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكماعن تلكما الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال أهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون .. » [٢]

وفي سورة طه : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى. فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يُخرجَنكما من الجنة فتشقى. ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ، فوسوس اليه الشيطان قال:

../.. اشتياقك و هو يسود عليك ، و قال لادم لانك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها ، ملعونة الارض بسببك ، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، و شوكا و حسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل ، بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود الى الارض التي أخذت منها لانك تراب و الى تراب تعود ، و دعا اسم امرأته حواء لانها أم كل حي ، و صنع لادم و أمرأته أقمصة من جلد و ألبسهما ... » أ . هـ .

(١) ــ سورة البقرة : الأيات من : (35 ـ 37) .

(٢) ــ سورة الاعراف : الأيات من : (19ـ 25) .

يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سؤاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا ... » [1]

هذا هو الانسان في التصور الاسلامي، وهذه هي قصته، خلقه الله من طين، ثم صوره في أحسن تقويم ، ثم جعل له السمع والبصر والفؤاد ، .. ثم اسكنه الأرض بعد أن أخرجه من الجنة ، وجعله مسؤولا في الآخرة عن حياته التي يحياها في الدنيا ..

ومن هنا تبدأ قصة الانسان مع الدين ...

(١) ـ سورة طه : الأيات من (115 ـ 183) .

المبحث الثاني

ثوابت التصور الإسلامي حول بداية الدين

مما تتصف به صلة الله بالانسان ، الديمومة والاستمرارية ، فمنذ أن خلق الله الانسان ، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذه الصلة باقية مستمرة ، لا تخضع لتأثير الزمان أو المكان .

وقد كان الدين هو التجسيد الفعلي ، والتفصيل الكامل لهذه الصلة على مدار التاريخ الانساني ، ونقصد بذلك الدين السماوي الذي أعلن الله عنه منذ أن تقرر هبوط آدم إلى الأرض، في قوله: « ... قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[١]

وقوله سبحانه : « ... قال اهبطا منها جميعا، بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتن أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ... »[٢]

فالذي يتضح لنا من خلال الآيات السابقة أن الدين أنزل على الانسان عقب خروجه من الجنة، وهبوطه الى الأرض .

فالخطاب يكاشف آدم في صراحة ووضوح ينمان عن جدية التكليف ، أنه نازل الى دار ابتلاء وامتحان ، هو وجميع أفراد ذريته من بعده ، وان معيار نجاحهم أو فشلهم في ذلك يرجع ـ أولا وآخرا الى مدى اتباعهم

---

(١) ـ سورة البقرة : الآيات (33 ـ 39) .

(٢) ـ سورة طه : الآيات من (123 ـ 126) .

لهدى الله ، الذي يعني بعبارة أخرى الدين بعينه ..

ولو أردنا أن نجمل فهمنا للتصور القرآني حول الكيفية التي جاء بها الدين والصورة التي كان عليها عندما جاء ، في كلمات مختصرة ، فاننا نقول :

ان مصدر الدين هو الله سبحانه ، فالله هو الذي أنزل الدين على الانسان منذ كان ، ليوضّح له طريق السير الصحيح من الدار الدنيا ، الى الدار العليا ..

كما نفهم كذلك أن قوام هذا الدين في الأساس هو التوحيد ، توحيد الله سبحانه وتعالى بما يليق بعظمته وجلاله ...

أما كيف صار الحال الى مانراه من تعدد في الاديان ، واختلاف في التصورات والمعتقدات فهذه مسألة أخرى لا تدخل في موضوع نشأة الدين ، و إنما تأتي في مراحل تالية لمرحلة التوحيد بفترات طويلة ..

ولعله في ضوء التعاليم القرآنية يصبح من السهل الى حد كبير ، إيجاد تفسير مقنع لهذا التعدد ، وهذا الاختلاف ..

فالقرآن يوكد أن الدين في أصله سماوي ، وان أساسه في الأصل هو التوحيد ، ثم يؤكد لنا في آيات أخرى أنه مامن أمة الا وخلى فيها نذير ومعنى هذا أن ديانة التوحيد الأصيلة قد وصلت جميع أمم الأرض ، سواء منها الأمم التي قبلت بها ، أو تلك التي تنكرت لها ...

فعند استحضار هذه المسلمات ، يصبح تفسير المعضلة السابقة التي ليس لدينا عليها برهان ساطع ، أو نص قاطع ، شبيها الى حد كبير بملء الفراغات في الجمل ، وهي عملية سهلة اذا ما قورنت بتنبؤات أولئك الباحثين الذين لم تتهيأ لهم مثل هذه الثوابت عند دراسة هذا الموضوع ، حيث لم يعتمدوا الا على الواقع المعاصر للاديان ، وهو واقع لا يصلح أن يكون ميدانا لهذه الدراسة من دون الدراسات الأخرى ، لأن ما يحويه من عقائد وتصورات وممارسات ، انما هو ثمرة لتغيرات وتطورات وتحريفات استمرت آلاف السنين ، وليس أصلا ثابتا يمثل البدايات الأولية لهذه الأديان ..

فعلى ضوء الهدى القرآني ، الذي يلعمنا أن الله سبحانه وتعالى بعث باعداد هائلة من الرسل[*] وعلى فترات متفاوتة .. « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك »[١] ، وانه ما من رسول من هؤلاء الرسل الا وكان يأتي مجددا لدعوة من سبقه من اخوانه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .. »[٢].

على ضوء ذلك كله ، نفهم أن مصير دين الله ، كان عرضة دائما للتحريف والتبديل ، بالزيادة أو النقصان ... والا لما أستوجب الأمر ارسال كل هذ العدد الهائل من الرسل بدعوة واحدة .. الى تعاليم واحدة ..

ولا نرى موجبا للخوض في تفصايل الظروف التي انتهت بالانسان في تلك الفترات الى الانحراف عن تعاليم السماء ، فالموضوع يحتاج الى بحث مستقل .. الا أن أهم ماساعد على ذلك فيما نرى ، هو بساطة وسائل الحفظ التي تهيأت للانسان في تلك الأزمان .. حيث بقي اعتماده الأول والأخير في التعامل مع هذه التعاليم على الذاكرة وحدها لقرون طويلة، مما كان يفسح المجال واسعا أمام العقائد الدخيلة ، والتصورات المريضة ، خصوصا ان تداول هذه التعاليم لم يكن حكرا على أشخاص معينين ، و إنما كان الناس على اختلاف مستوياتهم يتناقلونها فيما بينهم، كما كان كل جيل يورثها الجيل الذي يليه ... ويتم ذلك كله رواية بالمشافهة ، واستنادا الى ماوعته الذاكرة ...

وإضافة الى هذا ما يسهم به الشيطان من اثراء لضلالات الانسان

(*) _ ورد في الأثر أن عدد الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله الى الناس على مدار التاريخ، قد بلغ (24.000) نبي ورسول .

(١) _ سورة غافر : آية (78) .

(٢) _ سورة الشورى ، آية (13) و معنى هذا أن جميع الانبياء والرسل جاؤوا بدين واحد لا غير . .

وانحرافاته ، مستكملا بذلك شوط عدائه لهذا الكائن الى أن يرث الله الأرض ومن عليها...

ونحن لا نشك في أن ضلال الانسان في بادىء أمره ، كان نتيجة لاجتهاداته الخاطئة ، وثمرة لعاداته الفاسدة ... ونأخذ مثالا على ذلك ما ذكره ابن الكلبي في كتابه « الأصنام » . حيث يقول مفسرا الكيفية التي تحول بها العرب عن ديانة التوحيد الى عبادة الأوثان : « .. وكان الذي دفع بالعرب الى عبادة الأوثان والحجارة انه كان لا يظعن عن مكة ظاعن الا أحتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا بها، وصبابة بالحرم ، وحبا له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون ، ثم انتهى الأمر الى أنهم عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم .. »[١].

ويؤيد هذا أن قسما من العرب بقوا على إيمان بأنهم لا يعبدون الأصنام لذاتها ، وانما يعبدونها لكي تقربهم الى الله زلفي . كما يبين الله ذلك في قوله : « .. والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى .. »[٢] لهذا كان هؤلاء اذا سئلوا عن خالق السموات .. ورازق المخلوقات .. يجيبون بما أخبر به القرآن على ألسنتهم كما هو الحال في قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم »[٣] وقوله سبحانه : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله »[٤].

(١) ــ د . محمد الطيب النجار ـ القبس الوضاء من سيرة خاتم الأنبياء ـ مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية ـ القاهرة ـ 1409 ـ 1989 ـ ص 20

(٢) ــ سورة الزمر : آية (3) .

(٣) ــ سورة الزخرف : آية (9) .

(٤) ــ سورة العنكبوت : آية (16) .

وقوله تعالى : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ... »[1].

وهذا ما يوكد أنه اذا طال الأمد على الأوهام والعادات التي تداخل تعاليم السماء ، فانها في النهاية سوف تفسد هذه التعاليم لا محالة . وينتهي الحال باختلاط الحق بالباطل ، ويصبح هذا المزيج مع الأيام دينا ، يتعصب فيه للخرافة أكثر مما يَتَعَصَبُ للحقيقة ..

وعن هؤلاء الجاهلين المتعصبين نشأ الاختلاف في الدين ، وبجهلهم جعلوا الحقيقة الواحدة مزقا كثيرة ، وعلى هذا الأساس قام كل حزب يبني حول ما ارتضاه لنفسه منها أوهاما وأباطيلاً ، ثم فرض عليه الجهل في النهاية ، الاعتقاد أن صناعته دينا ، وخرافته عقيدة ..

وتعالى الله أن يترك عباده فريسة للجهل ، وعرضة للضياع ، فكان سبحانه كلما رأى الناس ضلوا وابتعدوا عن الطريق ، يرسل رسله مصححين وهادين .. الا أن أكثر الناس كانو يصرون على الضلال ، ويجعلون أصابعهم في آذانهم ، ويقولون في تعصب وجهل : «... إنا وجدنا اباءنا على أمة وإنا على اثارهم مهتدون..»[2] أو « .. إنا وجدنا اباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.. »[3] .لهذا فنحن نؤيد ماقاله أفلاطون منذ آلاف السنين ، ان العقائد في بدايتها كانت نقية نبيلة ، ثم تطورت تطورا تنازليّا[4] .

وفي نهاية هذا المبحث نستطيع أن نقول بأن هذا الذي عرضناه يشكل الأطر العامة التي جاء بها الاسلام حول الكيفية التي أبتدأ بها الدين ، والحالة التي انتهى اليها ، دون اغراق في سرد تفاصيل التحول من التوحيد

---

(١) ـ سورة العنكبوت ، الآية (63) .
(٢) ـ سورة الزخرف ، آية (22).
(٣) ـ سورة الزخرف ، آية (32).
(٤) ـ د . محمد دراز ـ الدين مرجع سابق ـ ص (13 ـ 14) .

الخالص الى التعدد الظاهر. والمسلمون ليسوا بحاجة مع القرآن الى حجة ، الا أن ذلك لا يمنع من عرض بعض الآراء والنتائج التي انتهى اليها عدد من الباحثين الانثروبولوجيين بهذا الخصوص ..

فكثير من هؤلاء الباحثين توصلوا من خلال الدراسات الميدانية التي قاموا بها الى أن التوحيد هو أصل الاديان ، وانه أول ديانة عرفها الانسان ، وعنه انبثقت سائر الأديان المنتشـرة اليوم في العالم .

ومن القائلين بذلك " لانغ LANQ " و " شميدت SHMIDT " وغيرهم كثير[١]

وذلك استنادا الى دراسات ميدانية أجريت على عدد من القبائل " المتخلفة " في استراليا وأفريقيا وإمريكا الشمالية ..

حتى إن زعيم المدرسة الاجتماعية الفرنسية - إميل دوركايم - يعترف - كما سبق أن ذكرنا - بوجود عدد من القبائل الاسترالية تؤمن " بفكرة" الاله الاعلى ، وتتصوره على أنه كائن أزلي أبدي ، تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره ، وانه هو الذي يثير البرق ويرسل الصواعق ، واليه يتوجه في الاستسقاء وطلب الماء ، وهو الذي خلق الحيوان والنبات ، وصنع الانسان من الطين ونفخ فيه الروح ، وهو الذي علم الانسان البيان وألهمه الصناعات وشرع له العبادات ، وهو الذي يقضي في الناس بعد الموت ، فيميز بين المحسن والمسيء .. ثم يؤكد دوركايم بالدليل أن هذه العقائد كلها ليست مقتبسة من أوروبا كما ظن تايلور، بل إنها قديمة في هذه القبائل قبل أن يصل اليها المبشرون الأوروبيون ، وأنهم يعبرون عن هذه العقائد بعبادات حقيقية ، وممارسات فعلية .. »[٢].

---

(١) - د. نبيل السمالوطي - الدين و البناء الاجتماعي/ ج 2/ مرجع سابق / ص (94 - 95) .

(٢) - د محمد دراز - الدين - مرجع سابق - ص (156 - 157) أنظر آخر / د قبارى اسماعيل ص (157) .

الا أن غالبية هؤلاء الباحثين يزعمون أن مصدر هذا الدين ، ليس هو الله وانما هي ملكة خاصة بالشعوب السامية ، وحجتهم في ذلك أن التوحيد أول ما ظهر ، ظهر في وسط هذه الشعوب ..

وبقي أن نشير الى أن بعض الباحثين المسلمين ، وعلى رأسهم الدكتور محمد دراز ـ رحمه الله ـ قاموا باستخلاص الأفكار الايجابية من غالبية النظريات الوضعية ، وبينوا أن القرآن قد سبق هذه النظريات في تقرير هذه المعاني ..(١) مستعينين على ذلك بأسلوب منطقي مقنع ..

ونحن ليس لدينا إعتراض على ما ارتآه علماؤنا بهذا الصدد ، الا أن الذي نحب أن نؤكد عليه هنا ، هو ضرورة وضع هذه الايجابيات ضمن اطار التصور الاسلامي ، تماما كما فعل باحثونا ، بحيث لا يكون قبولنا لمثل هذه الآراء أكثر من وسيلة نستعين بها على تفصيل الكيفية التي ابتعد بها الانسان عن أصل التوحيد ..

أو بعبارة أخرى . التعامل مع الجوانب الايجابية من هذه النظريات على أنها محاولات أفراد مختصين لتفسير منشأ تعدد الأديان واختلافها ، لا على أنها تفسير لمنشأ الديـن من الأساس ..

---

(١) ـ أنظر تفصيل ذلك في الكتاب القيم للدكتور دراز ـ الدين ـ المرجع السـابق ص (165 ـ 171) .

قائمة المراجع

1ـ القرآن الكريم .

2 ـ في ظلال القرآن / سيد قطب / دار الشروق ـ بيروت / الطبعة الشرعية الحادية عشرة / 1405 هـ ـ 1985 .

3 ـ مختصر تفسير الطبري / للامام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري/ اختصار وتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ود. صالح أحمد رضا/ مكتبة رحاب ـ الجزائر / الطبعة الثانية (1408 ـ 1987)

4 ـ قصص الأنبياء / عبد الوهاب النجار / مكتبة رحاب ـ الجزائر / 1987

5 ـ قصص الأنبياء / للإمام أبي الفداء اسماعيل بن كثير / دار الشهاب ـ باتنة ـ الجزائر ـ 1988 .

* قائمة المراجع مرتبة على الطريقة الأبجدية

6 ـ أبعاد الدين الاجتماعية / مجموعة من الباحثين / تعريب صالح البكاري/ الدار العربية للكتاب / تونس / 1985 .

7 ـ الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) / د . محمد عبد الله دراز / دار القلم / الكويت / 1402 ـ . 1982

8 ـ الدين والبناء الاجتماعي / د. نبيل محمد توفيق السمالوطي/ دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة / جدة / الطبعة الأولى / 1401 ـ . 1981

9 ـ الدين والبناء العائلي / د. نبيل محمد توفيق السمالوطي / دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة / جدة / الطبعة الأولى / 1401 – .1981

10 ـ الدين عند الله / محمود محمد / مكـتبة الرسـالة الحديثة / عمان ـ الأردن / الطبعة الأولى 1982 .

11 ـ الدين في نظر العقل الصحيح / د. محـمد توفـيق صدقي /

مكتبة المنار ـ مصر الطبعة الثانية / 1346 هـ
12 ـ الاسلام أولا / د. عبد الحليم عويس / دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع/ تونس / 1981 .
13 ـ الاسلام دعوة واقعية لا خيال / د. مصطفى السباعي/ الزيتونة للاعلام والنشر/ باتنة ـ الجزائر 1988 .
14 ـ الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية / محمد عبده / منشورات الأنيس (موفم للنشر) الجزائر ـ 1987
15 ـ الاسلام يتحدى / وحيد الدين خان / ترجمة ظفر الاسلام خان/ المختار الاسلامي / القاهرة / الطبعة الثامنة / 1984 16 ـ الاجتماع الديني (مفاهيمه النظرية، وتطبيقاته العملية) د. أحمد الخشاب / مكتبة القاهرة الحديثة . القاهرة / الطبعة الثالثة / 1970.
17 ـ الله / المجموعة الكاملة ـ الفلسفة الإسلامية ـ الجزء التاسع / عباس محمود العقاد / دار الكتاب اللبناني / بيروت / الطبعة الأولى / 1978.
1 8ـالحجاب / أبو الأعلى المودودي / الدار السعودية للنشر والتوزيع/ جدة الطبعة الثالثة / 1406 ـ 1986 .
19 ـ المسألة الاجتماعية بين الاسلام والنظم البشرية/ عمر عودة الخطيب/ مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة السادسة / 1402 ـ 1982.
20 ـ المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع/ د. خليل أحمد خليل/ دار الحداثة للطباعة والنشر والتنوزيع / الطبعة الأولى / 1984 .
21 ـ العهد القديم / سفر التكوين / الأصحاحين ـ الثاني والثالث .
22 ـ القبس الوضاء من سيرة خاتم الأنبياء / د. محمد الطيب النجار / مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية / القاهرة / 1409 ـ 1989 .
2 3 ـ الخصائص العامة للإسلام / د. يوسف القرضاوي / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الثالثة / 1405 ـ 1985 .
24 ـ إسلامنا / سيد سابق / مكتبة الشركة الجزائرية / الجزائر/ 1988.

25 ـ أفيون الشعوب / عباس محمود العقاد/ منشورات المكتبة العصرية / بيروت / بدون تاريخ .

26 ـ مايجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير/ ابراهيم السليمان الجبهان / الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد/ المملكة العربية السعودية/ الطبعة الأولى / 1397 ـ 1977.

27 ـ موقف الاسلام والكنيسة من العلم / عبد الله المشوخي ـ مكتبة المنار ـ الزرقاء ـ الأردن ـ الطبعة الأولى / 1402 ـ 1982 .

28 ـ معجم علم الاجتماع/ دينكن ميتشيل/ ترجمة د. احسان محمد الحسن / دار الطليعة / بيروت / الطبعة الأولى / ديسمبر 1981.

29 ـ مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام / أنور الجندي / دار الكتاب / الجزائر 1987 .

30 ـ نقض أوهام الجدلية المادية . د. محمد سعيد رمضان البوطي / دار الفكر / دمشق / الطبعة الثانية / 1399 ـ 1979 .

31 ـ علم الاجتماع / د. محمد أحمد بيومي / الدار الجامعية مصر / بدون تاريخ .

32 ـ علم الاجتماع والفلسفة ـ الجزء الثالث (الأخلاق والدين) د. قباري محمد اسماعيل/ دار المعرفة الجامعية / الاسكندرية / 1982 - ـ مصور عن الطبعة الثانية 1968 .

33 ـ تهافت الفكر الماركسي / د. صلاح عبد العليم ابراهيم/ دار الطباعة المحمدية / القاهرة / الطبعة الأولى / 1402 ـ 1981 .

الفهرس

الصفحة

والحمد لله رب العالمين

مطبعة عمار قرفي باتنة